صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE

الثقافة

مجلة ثقافية أدبية شهرية

دمشق - ص٠ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العدد الثامن

كانون الثاني

١٩٦٢

السنة الرابعة

دمشق

أي المفاتن في رحابك أعشق ... بلد الفتون وسحرها يا جلق

في كل زاوية وكل حنية ... جفن يرف ومقلة تتألق

وعلى حصاك ويا تبارك ما أرى ... نفحات فردوس تعج وتعبق

جمعت في مغناك كل سجية ... يزهو بها هام الزمان ويشرق

هل كنت الا للعروبة قلبها ... ولسانها ، فاذا استجارت ينطق

أعطيتها يوم الشدائد موثقا ... جل العطاء وجل ذاك الموثق

ورفعت في دنيا الكرامة راية ... ظلت على رغم المصاعب تخفق

يا موئلا للمكرمات ومعقلا ... ألوى الزمان به وعز المشفق

تابين حكم الظالمين كريمة ... كم ذل فيك الظالمون وأخفقوا

ان غاب من مضر بساحك فيلق ... يتبعه من دنيا أمية فيلق

أو أنكر الباغي عليك مآثرا ... وقف الزمان على رباك يصفق

تبقين يا ظئر العروبة كعبة ... يندى بساحتك الاباء ويعرق

تشتاقك الدنيا جمالا شيقا ... ولانت في الدنيا الجمال الشيق

ويحار طرفي في رباك وما درى ... أي المفاتن في رحابك يعشق

مدحة عكاش

دراساتنا الأثرية وسيلتنا الى التقارب بين العرب

بقلم : محمد ابو الفرج العش

لا بد أننا لاحظنا جميعا العناية الفائقة التي تبذلها الامم الراقية للمحافظة على آثارها مهما كانت تافهة حتى أن بعض الباحثين جعلوا قياس تقدم الامة تابعا لمقدار العناية بآثارها ، والاهتمام بدراستها ، ونشر أخبارها . ولا تكتفي البلاد الراقية بدراسة آثار بلادها بل تتجاوز ذلك الى دراسة آثار البلاد الاخرى ، لتحدد الدور الذي لعبته حضارتها في مجموعة الحضارات الانسانية ، الا أنها تولي الاهتمام الاكبر آثار بلادها التي تحدد شخصيتها وتبين موضعها في هذا العالم الكبير .

يهمني في هذه الكلمة أن أتحدث عن الشطر الاول ألا وهو الاهتمام بدراسة آثار بلادنا العربية . وهذه الدراسة تتم على مرحلتين : مرحلة دراسة الآثار المحلية في الاقطار العربية وتبين خصائصها ، مرحلة دراسة شاملة لجميع الآثار في الوطن العربي ، وملاحظة وحدتها في أكثر الاوقات ما خلا فترات يسيرة من الزمن كان لها أسبابها .

ان دراسة آثار البلاد دراسة عميقة تعني استمداد المعلومات من أصولها الصحيحة وأن الحصول على هذه المعلومات يكشف لنا عن حقائق نجهلها عن أنفسنا . فاذا علمنا هذه الحقائق فان هذا يعني أننا نتعرف على أنفسنا ، ومعرفة الذات هو السبيل الاول الى اليقظة الحقيقية التي تؤدي الى النهضة والتقدم السريع . ان الامة التي لا تعرف نفسها تتيه في عالم الاوهام ، لا تدري أين هي ولا الى أين تسير ، وأمة هذا شأنها تخبط خبط عشواء فقد تحسب نفسها تتقدم وتكون سالكة سبيل الهوة .

لقد مرت علينا فترة طويلة استسلمنا فيها لاغفاء عميق ، حتى أمسينا في درجة من الجهل بحيث لا ندري من نحن ولا من حولنا من العالم ، وقد نجح الحكم العثماني الى حد بعيد في فرض العزلة علينا سياسيا واقتصاديا وفكريا ، فعشنا في محيط ضيق تتلهى بأحداثنا الداخلية الصغيرة التي ما كانت تنقطع : أحداث منبثقة كلها عن مطامع شخصية واعتداءات وفتن ومؤامرات وسفك دماء . كان كل شيء من حولنا ينذر بالخطر والشر ، حتى كان الناس يفضلون أن يختبئوا في قوقعة لئلا يمسهم رشاش الاذى . فاذا درسنا الحياة الاجتماعية في المدن والارياف وجدنا أن كل حي في المدينة الواحدة ينطوي على نفسه ، حتى أن كل حارة في كل حي تجعل لمدخلها بوابة وتسد منافذها لتكون في مأمن من عاديات الزمن ، وكذا الامر في الارياف . وتشكلت من هذا الانعزال الضيق عصبيات محلية ، ومجتمعات متفككة في عاداتها وتقاليدها ومشاربها ولهجاتها ولباسها في المدينة الواحدة ، فكيف الامر في المدن المتباعدة والاقطار البعيدة ؟ لقد أمعن الناس في العزلة الى درجة أن الواحد منهم جعل عمله قرب منزله أو في منزله بالذات ، بل ان بعضهم من كان لهم بعض الواردات القليلة يكتفون بها ويقترون على أنفسهم حتى لا يخرجوا من دورهم ، ويفضلون الجهل على العلم ، والفقر على الغنى ، حتى بلغ الامر ببعض المتطرفين بالانعزال ألا يسمحوا لاولادهم بالخروج بتاتا وخاصة اذا كان لامرأة ولد وحيد ، وربما بلغ سن الولد سن الشباب ويظل في نظر أمه طفلا ، وكان كثير من الناس يجهلون الاحياء الاخرى الموجودة في بلدهم ، وقد لا يسلم الناس اذا ابتعدوا عن أحيائهم .

الى هذا الحد أوصلتنا العزلة وفقدان الامن والنظام حتى طغى علينا الجهل وراجت بينا الشعوذات ، وتسلط على عقولنا الاوهام ، لا ننكر أن في فترة الجمود والانحطاط التي نتحدث عنها خلايا علمية ظلت تتوارث العلم ، ولم

ينقطع فيها البحث والتأليف وانحصرت الابحاث في نطاق علوم الدين وقليل من اللغة والشعر والادب والتاريخ والفلك ، الا أنها كانت تعتمد على النقل والتقليد وكانت بمثابة اجترار ضعيف للمعلومات السابقة • ومع هذا فان اصالة الشعب العربي ، وهذه البقية الباقية من المعارف أضاءت ببصيص من النور سبيل المستقبل • عندما بدأ هذا الشعب يحتك بالعالم الخارجي في ظروف قاهرة خرجت عن ارادة الحاكم الظالم ، خفق القلب وجرى الدم وتفتح الذهن وتيقظت النفوس ، وبدأ الناس يتلمسون طريق الخروج من هذه القواقع العفنة، ويتقاربون ، ويتفاهمون ، ويتعارفون ، ثم يتعرفون على الاقطار المحيطة بل البلاد البعيدة • قارنوا ما بين هم فيه وما هو موجود في العالم ، فأخذوا يكسرون القيود ويداوون الجروح ، ويرممون بناء المجتمع ، حتى أشرقت النهضة التي نعيش في مطلعها •

ان أهم أركان النهضة الحديثة أن نتعرف على أنفسنا ، أن ندرس ماضينا ونبحث عن آثارنا ، فنرى كيف كنا ؟ ماذا أخذنا من الامم الاخرى؟ ماذا أعطيناهم؟ ماذا أبدعنا ؟ وما هي الخدمة التي قدمناها للانسانية ؟ لا لنعتز ونفتخر فحسب بل لنجدد العزم ، ونشحذ الفكر ، ونقبل على الحياة اقبال الواثق العارف المؤمن بحقه فيها •

ومن نعم الله أن الارض أمينة تخبىء تراث الاجيال الماضية للاجيال اللاحقة فبالرغم من الكوارث العظيمة التي أصابت بلادنا من زلازل وحريق وتخريب بربري حملته الى بلادنا الشعوب الغازية ، فان الارض لا تزال تحفظ لنا ثروة ضخمة من الآثار أراد المستعمر أن يتآمر عليها حينا من الزمن ، فسرق نفائسها ، وأغنى متاحفه بها ، الا أن قدرا كبيرا من هذه الثروة الهامة لا زالت تحفظها لنا أرضنا الطيبة الحبيبة ، وليس لنا الا أن نبعث الهمة على العمل • ولكن ماذا نعمل ؟

ـ أول ما يجب أن نعمل هو أن ننمي الوعي لحفظ هذا التراث والاقبال على تكريمه وصيانته ، أن نطبق الاساليب العلمية الحديثة في البحث عن الآثار ، أن ندرس أهمية الآثار ، أن ننشىء المتاحف التي تتلاءم معها ، أن نقبل على زيارة الاماكن والمتاحف الاثرية ونتعرف على أنفسنا من خلال الاجيال المتراكمة •

لقد قطعنا ولله الحمد شوطا حسنا في هذا السبيل ، لكنا لا نزال في بداية الطريق • صحيح أن أعمالنا في هذا المضمار تعجب الباحثين والمختصين ، لكنها لا تزال أعمالا متواضعة هي بحاجة الى تنمية وترقية وتشجيع من قبل الدولة والاهلين • أمامنا طريق طويل محفوف بالمصاعب ، يعوزنا المال والاداة والعقل المدبر واليدالعاملة الاختصاصية • هذه أمور سنحصل عليها وسنستكمل عناصرها مع الزمن وسيكون لنا من الخبرة في المستقبل ما يجعلنا قادرين تماما على كشف أسرار حضارتنا القديمة •

هذا الاهتمام بدراسة الماضي يجري في كل بلد عربي تقريبا ، لكن العزلة التي كانت تسود وطننا الكبير جعلت كل قطر يمارس أعماله في نطاقه المحلي ، ولا يزال المستعمر يتشبث ببعض أجزاء الوطن ، ويحاول أن يبعده عن حظيرة العرب • لكن هذه المحاولات ستفشل ، وستفتح الابواب بين أقصى الشرق وأقصى الغرب في الوطن العربي لان أسرار الوحدة العربية كامنة في أرضنا العربية فان دراسة الآثار دراسة مقارنة شاملة ضمن الاطار التاريخي هي الدليل القوي على تقارب مفاهيمنا وانسجام ميولنا واتساق أهدافنا ووحدة مصيرنا • فاذا تأخر اتصال البلاد العربية بعضها ببعض بسبب العوائق المصطنعة فان هذا الاتصال آت لا ريب فيه وكلما ازداد احتكاك الاقطار العربية بعضها ببعض وأقبل الناس على التعارف والتآلف ونظروا الى مرآة الماضي من خلال الدراسات الاثرية التاريخية ازدادوا يقينا بوحدتهم ، وتكريما لمجدهم •

كم تكون فرحة الاخ بلقاء أخيه الذي غاب عنه طويلا ، كم يثلج القلب أن تزول الحواجز من بين الاقطار العربية فيتنقل العربي في وطنه الشاسع ـ كما

رجل المدينتين

قصة بقلم : محمود الخطيب

كل ما سيأتي حدث في عالم خاص :

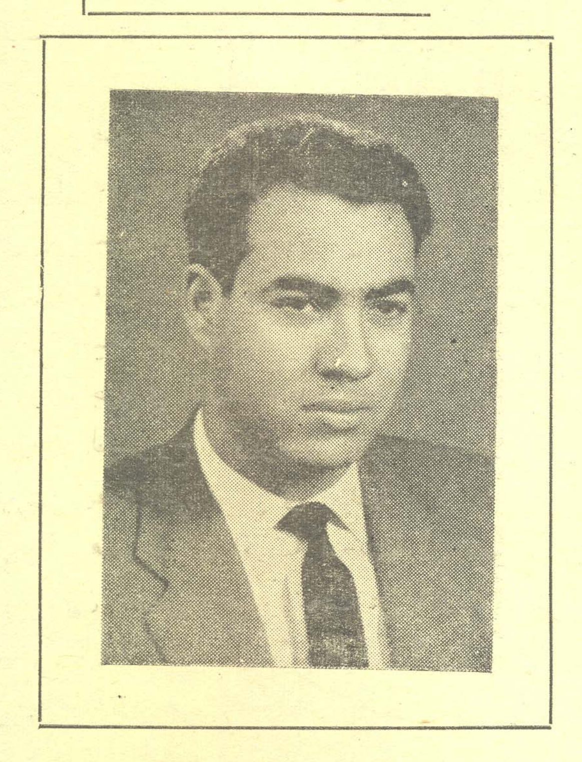
« الحقول الواسعة المزروعة ليس غير ، الفارغة ليس غير ، تمتد في الكون الفسيح الفسيح ، الضيق الضيق ، والطريق الطويل الممتد ، المنخفض والمرتفع ، وهذه السنابل الذهبية ، والاجسام العارية في المدينة ـ تمايل ولا تمايل » . ماذا لو كانت على شكل آخر ؟..

وكذلك هذا البغل ... وهذا الحمار ... وهذا الرجل ...

الشارع المزدحم في المدينة ، المليء بالاجسام الطرية ، بالاجسام الصلبة ، وهذه السيدة التي تمر الآونة ، ذات الجسم المتمايل ـ والسنابل الذهبية الكثيرة في الحقول ، والقط الاسود ، والطفل الممسوخ ـ هذا البغل ، وهذا الرجل ، وهذا الحمار ، والسنابل الذهبية والاجسام العارية ـ تميل ولا تميل .

ماذا لو كانت على شكل آخر ؟ ...

السيدة التي تمر الآونة ، تطرق الشارع بكعبين دقيقين ، تنظر الى الامام ، تتثنى ولا تتثنى ، وعلى نافذة قريبة ، يجلس فتى غرير ، يصفر ، ويصفر باستمرار .



كان الفيلسوف ينظر الى السيدة وهي تطرق الشارع بكعبيها الدقيقين ، وبعد رحلته الاخيرة ، رحلته الاولى ، أصبح ينظر اليها نظرة جديدة ، كان يقول :

ـ ماذا لو كانت هذه السيدة على شكل آخر ؟..

كانت الحال تماما في أدوارنا الزاهية ـ يتلقى العلم من هنا وهناك ، ويتاجر بجميع الاصناف من أقصى الوطن الى أقصاه ، فتتلاقى القلوب ، وتتقارب العقول ، وتتبادل المنافع ، وتدب الحركة بالاوصال ، وتسري الحياة الى جميع الاجزاء .

كل هذا يرتكز على فهم الماضي من أصوله الصحيحة ، واذاعة الحقائق التاريخية والاثرية على الشعب العربي في كل مكان ، والسعي الى تحسين الاوضاع الراهنة للوصول الى مستقبل أفضل .

وأخيرا نحمد الله على أن الوعي العربي أصبح حقيقة واقعة ، وان مثلنا أصبحت راسية على أساس مكين ، وأن النهضة الحديثة تسير بخطوات متزنة ، وأن التباشير تدعو الى التفاؤل بمستقبل أحسن ، فلنسر على بركة الله والله موفقنا .

محمد أبو الفرج العش
محافظ المتحف الوطني بدمشق

وهمس فيما بينه وبين نفسه :

ـ ان تلبس بذلة وربطة عنق …

وفكـــر :

ـ هذا العالم الكئيب …»

كـان الفيلسوف جالسا في شرفتـه ، عاليـا بعض الشيء ، وكـان يبـدو صافيا متغضن الملامـح ، مشعث الشعر ، وكانت يده مغلقة على عصا غليظـة ، ترتجف باستمرار . وبعد رحلته الاخيرة ، رحلته الاولى ،اصبح سريع التغير ، سريع الانفعال ، وقد صار منذ الرحلة الاولى كئيبا دائما . وكان في ميســوره ، ان يرى من شرفته العالية الى شارع المدينة ويدقق النظر فيما تحته . كان يرى بصورة خاصة ، ويحكم بعالم خاص …

ورأى :

الشارع المزدحـم بالناس ، الذاهبين الآيبـين ، الواقفين عند شيء ، يمتد طويلا الى ما لا نهاية ، يمتد الى نهاية . والرجل الذي يخبط الارض خبطات مشوشة بقدمين ثقيلتين الآونة ، الثابت النظر في الامام ، المرتجف عضلات الصدر ، المهتز الاليتين ، المشدود الجسـم ، يقبل نحو الغرب ، وعلى النافذة المقابلة ، الواطئة عن مستوى الشرفة قليـلا ، تجلس شابـة مليحة ، بارزة الثديين ، تصفر له ، وتصفر باستمرار . وعلى حـافة الرصيف وأمام عدة من الحوانيت والابنية كان يقف رجـال خجلون يتحادثـون بهمس مطأطئي الرؤوس وكانت تمر في الشـارع نسـوة كثـيرات ينظرن اليهم ويغمزن بأعينهن ويبتسمن بعض الشيء .

وقال الرجل المقبل نحو الغرب في ذات نفسه :

ـ يالك من مدينة مخنوقة …

وهمست الفتاة في النافذة :

ـ يا لك من مدينة مخنوقة …

وقهقهت بعض المقبلات في الشارع بأعلى أصواتهن ثم فكر الفيلسوف :

ـ « هذا العالم الجميل على هـذه الشاكلة … هذا العالم الرحيب … »

ونظر الى الناس لبرهة قصيرة ثم نقر بعصاه على أرض الشرفة وتمتم :

ـ « سأذهب في رحلتي الثانية هذه الليلة … رحلتي الثانية …»

وقام من مكانه ومشى الى الداخل ، وسحب كرسيه وجلس خلف مكتبه ثـم حـرك عصاه مرة او مرتين وأسندها الى جانبـه ووضع كفيـه على صفحتي وجهه وراح يفكر …

كان الليل يقبل هزيلا ، وكان ذلك ظاهرا من الشرفة المرتفعة ، وكانت الجلبة ما زالت تدور في الشارع الطويل الممتد نحو الشرق ، الممتد نحو الغرب ، وكانت بعض النسمات تتسلل من باب الشرفة وبعض الصفير أيضا . وفيما كان الفيلسوف يحدق الى قاع الغرفة ، ويفكر ، كانت قطة رصاصية اللون تموء حول أرجل الطاولة ، مهملة كـل الاهمال . وكان سـرير منبطح مشعث المحتويات في ركن من أركانها . وكانت حقيبة جلدية يعلوها الغبار ملقاة تحته مفتوحة القفلين .

وعند منتصف الليل سمعت قدمان هزيلتان تهبطان سلما حجريا وتنتقلان فوق أرض الشارع تساعدهما عصا تنقر بانتظام ، وسمعت لهثات تخرج من صدر موهون وتنهدات مخنوقة ، ورؤي الجسم ، في الظلمة المحلولكة جدا ، شبحا يعتمر في رأسه شيئا ما ، وقبل ان يتلاشى الظل الهزيل من آخر الطريق تحدث الفيلسوف مـع نفسه :

ـ « في نقطة البدء الكبيرة ، حيث تتلاشى نقطة الانتهاء أبدا ، ترتبط مدينتي بمدينتكم ، ومدينتي ، بعد نقلة رجل واحـدة ، تصبح منفصلة عن مدينتكم كـل الانفصال ، ومدينتي … ليتكم تعرفون مدينتي … بعد نقلة رجل واحدة ليس غير ، اختفي عن عالمكم ، ويختفى عنكم عالمي » وعالمي واسع رحيب ، ليس فيه ليل ، وليس فيه خبث ، ليتكم تعرفون عالمي …

- ٢ -

كـان الفيلسـوف ، عند مطلع الفجر ، يرتعش باستمرار . والى حد ما أحس انه أصيب ببعض البرد في رحلته الثانية ، ولكنه رغم ذلـك عاد مسرورا كل السرور ، مختلفا كل الاختلاف ، ذلك لانه رأى أشياء كانت جديدة في عالمه . وبعد ان مكث قليلا في كرسيه على الشرفة تحرك الى الداخل ومشى قليلا لكي يدفىء نفسه . كانت غرفته مشرعة النافذة وكانت بعض قطرات الرطوبة ترسم خطا عريضا حول اطارها ، وكان سريره قد أصيب ببعض هذه الرطوبة ومكتبه أيضا ، وفراشه قد صقع بعض الشيء . وعندما شعر بالدفء خرج مرة ثانية وجلس في مكانه ، ولكن في أي من هذه اللحظات لم يتمكن من رؤيـة أحـد يمر في الشارع الطويل . وليس من ريب أن الشارع والجدران والابواب والنوافذ كانت قد تغطت بطبقة من الرطوبة . وكان ذلك مدعاة للاشمئزاز عند الفيلسوف ، بسبب ان مدينته لا تقع في ساحل البحر ، وفكر : « لو كانت هذه المدينة في عالمي ، لكان الامر مختلفا . لكانت خالية من الرطوبة . آه .. خالية من القيود ، خالية من البؤس خالية من الزيف ، خالية من النوافذ والابواب ... لا تقع على ساحل البحر مليئة بالعقول الكبيرة ، مليئة بالطقوس الحديثة . لـو كانت هذه المدينة في عالمي .. آه ..

وفيما بدا ان الفيلسوف قد تغير فجأة تغيرا ملحوظا، وراح يتصور الآونة أشياء لم يرها الا في رحلته الثانية : عندما مر بحقول مدينته لم ير فيها سنابلها البتة ، وقـد لاحظ ذلك بابتهاج ، وأيقن في قرارة نفسه ان ما رآه هو عين الصواب ـ ان الرجال المغروسين من رؤوسهم في مواضع السنابل يتماوجون منتصبي الاجسام باستمرار، ولكن أيا من هذه المشاهد لم يرها الفيلسوف من قبل ـ وهو وان أقر سلامة فعلتها ، لادراكه ان أهل مدينته لا يفعلون خطأ ، الا ان بعض التساؤل كان يدور في رأسه ، وكان ذلك مدعاة لتفكيره بعض الشيء . وعندما توغل بالمدينة تنحى بأحد أهلها وسأله عما جرى بصوت رقيق ـ فأجابه : ان مدينتنا رأت هذه الطرود المزروعة كالسنابل قـد تمردت عليهـا ببعض العـادات والتقاليد والتفكير . وقد وجدت مدينتنا ، لصالحها ، غرس هذه الرؤوس في التربة للاعتقاد الصميم ان الارض الخصبة منبت العقـول الكبيرة ، كفيلة باعادتها الى الصواب ـ وتمتم الرجل المواطن : « ان مدينتنا على صواب يا سيدي الفيلسوف . كيف نصف عالمك ...؟

فأجابه الفيلسوف :

ـ ان نصف عالمي مزيف . انه يحتضر ...

فهز المواطن رأسه بسرور ومشى وهو يهمس :

ـ جميل ذلك يا سيدي ... جميل ما تقوله ...

وفكر الفيلسوف :

ـ ان حقول مدينتناتنتج رجالا ...

وقال بوضوح من شرفته :

« مدينتي ليس فيها ليل ... ليس فيها زيف ... حقولها تنتج رجالا ... ليتكم تعرفونها ...»

وتفحص في الشارع ، كان لا يزال هادئا . وكانت الشمس قد بدأت تتسلل الى المدينة ، وحاول الفيلسوف أن يلحظ أيا من أهل المدينة يمر في الشارع الطويل لكنه الفاه فارغا . وحرك ذراعه ونقر على طوق الشرفة ، وهمس فيما بينه وبين نفسه :

« مات أهل المدينة ...»

- ٣ -

الشارع الهادىء الممتد نحو الشرق ، نحو الغرب، المستسلم لقبلات الشمس ، الفارغ قبل لحظات ، الرازح تحت ثقل الرطوبة ، أصبح مكتظا متزاحما . والفيلسوف الذي جلس مع الفجر سـاكنا فـوق شرفته ينقر على طوقها ويرتعش من البرودة ، أخذ يحدق باهتمام . وليس من ريب ، ان ما رآه الفيلسوف الآونة أخذ بكل عقله ، وجعله يتشبث بجدار شرفته تشبثا مجنونا . وقد استطاع أن يميز تمييزا تاما أفواجا من الابقار والحمير تمر من تحت شرفته متزاحمة تزاحما شديدا ، واستطاع ان يلحظ انها تحييه باشارات من عيونها وتحني رقابها

وقد اتجهت نحو الغرب . والى حد ما تأكد ، ان هذه الافواج تضع على أجسامها ثيابا وتلبس أحذية في حوافرها وأظلافها . وقد ظل يتابعها في طول الشارع حتى أخذت تتلاشى شيئا فشيئا . لكن أيا من أنواع البشر لم يظهر في الشارع الا بعد ان تلاشت جميعها . كان الشارع يهدأ رويدا رويدا ، وكان أول الرواد من الناس قد برز من ناحية الغرب .. وقد رؤي أن أكثرهم ذكور أخذوا يغذون السير نحو الشرق ، وقد صدر عنهم بعض التهامس أول الامر حتى أصبح جلبة مختلطة، على أن الفيلسوف ظل مبهورا مرتعش الاطراف ، متشبثا بطوق شرفته ، ينظر الى الشارع بخوف ، وتمتم : « هذا العالم المزيف .. انه يحتضر ... انه يحتضر.. » وقد سمع الآن الجلبة تتزايد تزايدا متلاحقا ، وسمع صياحا يصدر من الشارع بصورة عنيفة ، ودقق جيدا ، كان يرى صبيين يقتتلان ويتشاتمان ، والناس يمرون من حولهما : « اسمع يا ابن القطة ... سأدق عنقك وحق الجحيم » . ـ « اسمع ، أنت يا ابن القطة ... ابتعد عني ... ارفع قبضتك عن أذني » ـ « أخرس يا ابن القطة ـ اخرس ... » وهوى عليه بكفه فصاح الآخر من الالم وأخذ ينشج .

فهمس الفيلسوف :

« أيها الصبيان الصغيران ... يا براءة المدينة ... ان مدينتكما تموت » وتمتم : « رأسي يدور ... رأسي يدور » ونهض ومشى الى الداخل ثم جلس الى مكتبه ، وأخذ يعصر كفيه ويرتجف باطراد ... وفكر ... وفكر ... وفكر .

كان الصباح قد ارتفع . وكان في ميسور الفيلسوف أن يرى بوضوح أشعة الشمس قوية في الخارج ، وان يرى الرطوبة قد أخذت تجف ، وان يسمع الصياح يتزايد وبعض الشتائم تتعالى وقد دخلت اليها أصوات رجال . وفكر :

ـ سأكتب لكم يا أهل المدينة .. سأكتب لكم ..

وأمسك القلم بأصابع خائفة وطرح أمامه ورقة وأخذ يدون :

أهل المدينة ...

يوم أمس بالذات أو اليوم بالذات ، شعرت انني مت ، وانني سأبتعد عن مدينتكم السيئة الى الابد . وأحب أن أنوه هنا انني أكتب لكم الآن ، ليس لايما شيء ، الا لانني سأموت بعد بضع دقائق موتا مرعوبا فيه من جهتي . وكذلك أريد أن أذكر ، ان موتي سيكون لاستياء نفسي ، من طقوسكم ، وعاداتكم ، وتقاليدكم .

« ان مدينتكم الواقعة على ساحل البحر ، فيها رطوبة كثيرة ، وفيها ليل وفيها ناس راكدون ، وهي تحد نصف عالمي الذي يحتضر ... »

« أريد أن أقول لكم ان مدينتي ستنفصل عن مدينتكم حالما أنام على السرير . وان مدينتكم ـ بعد الذي لحظته في رحلتي ـ سوف تبقى مجهولة .. حتى تموتون ... »

مذكرة : « الناس الذين يموتون في مدينتكم ، لا يعرفون كيف يموتون . وتذكروا انني أريد قبل ان انتهي ان أتطلع الى السقف مليا . فاذا وجدتم عيني مغلقتين ، مفتوحتين ـ افتحوهما ... اغلقوهما ... » .

وترك القلم وأزاح الكرسي من تحته فكاد يسقط ، ومشى الى سريره واستلقى عليه ، ثم تنفس عدة مرات ، وحدق الى السقف ... وحدق ... ثم بقي محدقا .

* * *

تساءل الناس وهم يشيعون جنازة الفيلسوف في مساء نفس اليوم : « كيف مات العقل الكبير ؟؟ » .. وظلت أكف تصفق بعضها حزنا عليه . وظلت ولولات تتصاعد حتى واروه في ليل المدينة ...

وفي طريق العودة تساءل اثنان عاقلان في آخر الحشد بهمس :

ـ الى أين كانت رحلته ؟...

الكويت ـ محمود الخطيب

فن النحت عند العرب

بقلم : وهيب سراي الدين

أول ما يصدر الفن في بدء نشوئه عند الانسان يصدر عن الهوى والالهام ، بعيدا عن دائرة العلم وسلطان العقل . فيكون بهذه الحال تعبيرا صادقا عن العواطف والمشاعر ، ولكن لم يلبث قليلا من الزمن حتى يتدخل به العلم ، ويتناوله العقل الذي لا يحب الفراغ كالهواء . وهنا يصبح الفن معبرا تعبيرا صادقا عن المعتقدات والحاجات الى جانب تعبيره عن الذوق والاهواء، والمشاعر والعواطف .

وأعتقد أن هذه هي سنة تطور الفن . فهو يصدر أولا عن أسسه المبدعة الاولى في الانسان ، ثم يشاركه به العقل مع كافة الحواس والجوارح حتى يدرك تكامله ، ويتم نضوجه ، فيؤدي عندئذ رسالته الارضية الى جانب رسالتيه الانسانية والفنية . وبعد هذا نستطيع أن نقول ان الفن وليد حاجات ومعتقدات الامة ، كما هو وليد مشاعرها وعواطفها وأهوائها . وهنا لا بد لهذه الاسباب الاولى ، المولدة للفن ، والمبدعة له من تنمية ، أو كما يقول العلم من تحريض ، حتى يستطيع الانسان الاستلهام والابداع ، وتفتيح النفس والخيال ، وهذا المنمي أو المحرض هو عديد ومتنوع ، وأبرزه الاثر الفني .

والاثر الفني هذا ما هو الا أثر مادي ، تراه العين، وتلامسه الجارحة ، وتشعر به النفس فتتخيله بأشكال مختلفة متباينة في دقائقها وخصائصها ، ولكن تبقى دوما محتفظة بالصفة العامة له . فمثلا الآثار الفنية اليونانية ما زالت مصدر الخيال والالهام لكثير من الفنانين في عبر العصور اللاحقة للعصر اليوناني ، وحتى ما زالت المصدر الملهم ، والممد الاول لفناني هذا العصر ، وستبقى كذلك الى آخر الدهر ان كان للدهر آخر .

وهنا نقف عند نقطة شبه مبهمة تحتاج الى شيء من التوضيح . وهي أن لكل أمة ، ولكل عصر خصائص ومميزات فنية مستمدة من الذوق الخاص بتلك الامة أو ذاك العصر ، مما جعل الانتاج الفني مطبوعا بالطابع القومي ، أو بالطابع العصري . ولكن نستدرك ازاء ذلك ، ونقول ان الاثر الفني ، الملهم الاول ، لا يمحى تماما في الانتاجات الفنية القومية أو العصرية ، بل يبقى فيها بمثابة الاساس للبناء ، الى جانب هذه الخصائص والمميزات التي تؤلف الجدران القائمة لهذا البناء .

وفعلا لو أن الفنانين الذين يستمدون خيالهم في فنهم من أثر الفن اليوناني انتجوا فنا يونانيا في عصرنا هذا ، خاليا من المميزات العصرية ، فسيكون انتاجا فنيا مستغربا لنا ، وسنلح بنقله فورا الى مكانه اللائق في المتاحف أو دور الآثار .

وبعد الذي قلناه نستطيع أن نطبق الحديث على الفن العربي ، فهو فن مستمد ومستلهم من آثار الفن الفارسي ، ومن آثار الفن البيزنطي ، الى جانب استلهامه واستمداده من الطبيعة والفنون الشرقية : القديمة ، والهلسنية ، والمسيحية . ولا أحد يستطيع أن ينكر الآثار لهذه الفنون في الفن العربي ، ولا سيما في الفن العربي الاول .

ولكن الامة المبدعة ، هي الامة التي تستورد الفنون الاجنبية ثم تحولها الى حاجاتها ، وتضع عليها خصائصها ودقائق ذوقها ، حتى تطبعها بطابعها الخاص ، والعرب أمة مبدعة ، بل مبدعة جدا . لماذا لا ، وهم الذين امتازوا بدقة النفس ، وخصب الخيال ، ورقة العواطف ، ورهافة المشاعر ، وقوة الاحساس . والعربي هو الشاعر الفطري، ابن السهوب المنبسطة والسماء الصافية . والشاعر ، كما

هو معروف ، متفنن بديهة . ولذا ما كانت بداءة النهضة العربية في العصر الاسلامي الاول ، الا وكانت الامة العربية قد طبعت ما استفادته من فنون الامم السابقة لها بطابعها الخاص . فتفننت في أساليب الزخرفة ، وبرعت في دقة الجزئيات ، حتى أصبح الفن العربي ما هو عليه من النضارة والبهاء ، والروعة والجمال . وحاز على جميع الوسائل التي تجعله فنا مبدعا ، ممدا للخيال ، ملهما للنفس ، كما هو الحال في الفن اليوناني والفن الروماني . وأنتج العرب أيضا عجائب فنية تضاهي ما انتجه اليونانيون والرومانيون من عجائب . فلا غرو لهذا التقدم السريع في الفن العربي اذن ، وهو الفن الوليد من أمة فتية ، واسعة الخيال ، دقيقة النفس ، ذكية القلب . وبعد هذه المقدمة ، وقد أطلنا بها ، نتمكن أن نأتي لموضوعنا الاساسي في هذا الحديث وهو فن النحت عند العرب .

ان فن النحت عند العرب من جملة الفنون المبدعة التي استوردوها من الخارج . ولقد عانى من الاسباب الدينية في بادىء الامر معاناة قاسية ، ولا سيما في الصدر الاسلامي الاول . فجهد القائمون على الحكم في محاربته حتى لا تتسرب الى عقول الناس الافكار الوثنية ، وسيما أن عبادة الاصنام ما زالت قريبة العهد بهم . ولكن أخيرا استطاع الذوق العربي أن يتقدم بهذا الفن ، ويدفعه الى الامام ويتمم حلقة كاملة من سلسلة تطور حياته التاريخية .

ففن النحت عند العرب اذن وليد الحاجة ، كما أشرت الى ذلك سابقا ، والعرب عندما تقدموا أشواطا بعيدة في الحضارة والرقي ، وفتحوا البلاد والامصار ، وأطلعوا على مدنها وحضاراتها ، وقاموا بتأسيس دولتهم ومدنيتهم ، وأثروا وبنوا المدن والقصور . فكان لا بد لهم ، وقد نأوا عن الحياة الاسلامية الاولى ، من الزينات والزخارف المنحوتة التي اعتبرت من متممات البناء ، أو من ملزماته . فظهرت الزخارف والنقوش على واجهات المباني وجدرانها . وهي معروفة تماما نقرأ عنها في الكتب المعنية ، ونشاهدها في أي بناء أو مسجد عربي قديم .

وهكذا نشط فن النحت وتقدمت زخارفه ، وسادت فيها أولا الرسومات الهندسية التي تتخللها كتابات عربية ، والتي قد استندت بنحتها ونقشها على قواعد متينة خاصة . وأما طريقة الصنع لها فكانت اما نقرا على الحجر ، واما صبا في القوالب . ومن الامثلة الدالة على الطريقة الاولى ، الزخارف الموجودة على أكثر مساجد القاهرة . ومن الامثلة الدالة على الطريقة الثانية ، النقوش الموجودة في قصر الحمراء بالاندلس . وتقدم فن النحت على هذا الشكل وقد برز فيه فن النقوش الكتابية التي عمت الدور والمساجد على السواء كما علمت . وأصبح بذلك للخط العربي قيمة فنية عظيمة في النقوش العربية المنحوتة . حتى فاقت نقوش الخط العربي هذه سائر أنواع فن النحت في القرن التاسع الميلادي . ولا سيما منها نقوش الخط الكوفي وما اشتق عنه من خطوط . مثل الخط القرمطي ، والخط الكوفي القائم الزوايا . وأما الكلمات أو الجمل التي استعملت في النقش والزخرفة كان أكثرها آيات قرآنية وبالاخص البسملة: (بسم الله الرحمن الرحيم) و (لا إله الا الله ، محمد رسول الله) .

وبعد هذا الازدهار الفني في نقوش الخط العربي المنحوتة ظهرت أنواع أخرى من فن النحت عند العرب . وهذا طبيعيا أن يكون ، لتقدمهم أكثر في مدارج الحضارة ومعارج الرقي . فكان لا بد من تزيين القصور الفخمة ، وساحات الدور العظيمة ، بالتماثيل كعادة عظماء الامم التي دال سلطانها ، أو ما زال مجاورا . ولهذا السبب كانت التماثيل التي حفلت بها القصور . ولكن لا نستطيع أن نقول ان فن التماثيل قد تقدم عند العرب مثلما تقدم عندهم فن النقوش الكتابية للخط العربي . وذلك من جراء الدوافع الدينية التي كنت قد ألمعت اليها سابقا . ورغم ذلك فقد وجدت التماثيل في القصور والدور ، كما عنت بها كتب التاريخ العربي فرسمت لنا منها نماذج

عدة ، وحدثتنا بالكثير عنها . فقيل ان بعض خلفاء مصر قد ملأ قصره بتماثيل نسائه . كما كان يوجد في قصر عبد الرحمن الاندلسي تماثيل كثيرة ، ولا سيما تماثيل حظيته . ووجد بين التماثيل العربية ، غير هذه التماثيل الآدمية ، تماثيل للحيوانات . ولكن قد زال أكثرها ولم يبق منها الا ما يمثل حيوانات وهمية كالتي توجد في قاعة الاسود بقصر الحمراء .

ومن الملاحظ أن التماثيل قد كثر استعمالها في قصور شمالي افريقيا والاندلس ، بينما قل استعمالها في قصور القسم الشرقي من الوطن العربي . ولكن لا ننس أن قصور هذا القسم ومنازله ومساجده قد حفلت بروائعها الفنية غير التماثيل . ومن هذه القصور قصر طوبة ، ورباط عمان ، وقصر الخليفة هشام بن عبدالملك في خربة المفجر في شرقي الاردن ، وقصر المشتى في بادية الشام الذي بدىء ببنائه في خلافة الوليد الثاني الاموي سنة ١٢٧ هـ . وكل هذه القصور حافلة بالزخارف والنقوش المنحوتة التي تعتبر من أبرز الامثلة لتقدم فن النحت في العصر الاموي . وأخص بالذكر منها قصر المشتى . هذا القصر الذي يعتبر من أعظم الآثار العربية في القرن الثامن الميلادي وأهمها ، لما به من الابتكار والنقش والزخرفة ذات الخصائص والمميزات العربية الخالصة . وهذا مما شجع بعض المعنيين بالفن العربي أن يجعله الانموذج الكامل لفن النحت العربي في العصر المذكور . وتتجلى فعلا روعة النحت الاموي في هذا القصر ، بل في واجهته المنحوتة نحتا غائرا ، والقابعة الآن في متحف برلين . وتقسم زخارف هذه الواجهة المنحوتة الى مجموعتين رئيسيتين : المجموعة الاولى ، تتألف من المثلثات الموجودة على يسار المدخل ، وفيها تبرز الرسوم لعديد من أشكال الحيوان والطير وصور آدمية كثيرة ، وكلها قد صيغت صياغة بارعة في وسط تفريعات من سوق العنب . ويظهر في هذه المجموعة الاقتباس من الفن السوري المسيحي . والمجموعة الثانية ، وتتألف من المثلثات الموجودة على يمين المدخل ، ولكن لا أثر في زخارف هذه المجموعة للكائنات الحية . وأما سوق العنب فقد حفرت على طريقة فنية شرقية قديمة ، الا أن نحاتها لم يعتمدوا فيها المسطحات الحجرية الكبيرة ، وذلك ليبرزوا طريقة الضوء والظل في النحت والزخرفة . وخلاصة القول في هذه الواجهة الفنية الثمينة أن فن النحت العربي بلغ فيها درجة الاستقلال عن كافة عناصر الفن السوري المسيحي والفن الساساني الايراني ، واتبع الفنانون فيها أسلوبا فريدا بخصائصه ومميزاته مما يستحق حقا بتسميته بالاسلوب الاموي .

وهكذا ما انتهى العصر الاموي الا وقد تم فن النحت العربي على الحجر والجص والخشب بنقوشه وتماثيله وتيجان أعمدته ومحاريبه . فلما جاء العصر العباسي تسلم هذا التراث كاملا وزاد فيه وأضاف عليه ، ولا سيما حين تأسست مدينتا بغداد وسامراء ، ولما ازدادت الثروات واستدعي مهرة الفنانين من مختلف البلاد والاقاليم لاشادة المدن والقصور والمساجد وغيرها ، وللقيام بتزيين هذه الاوابد التاريخية . فلما شيدت بغداد هرع النحاتون اليها من ايران وسوريا والموصل والكوفة والبصرة وواسط . وكذلك حصل لما بنيت مدينة سامراء ، وعلى نطاق أوسع . وكان من الطبيعي أن تمتزج جميع الاتجاهات الفنية في الحفر والنحت لهذه الاقاليم لتكون أسلوبا جديدا بغداديا أو سامرائيا أو بغداديا ـ سامرائيا أو بما نسميه نحن الآن بالمدرسة العراقية . ومن العراق انتشر أسلوب هذه المدرسة في جميع أنحاء الوطن العربي ، وخاصة في مصر بعهد الطولونيين ، وما زالت زخارفها الجصية واضحة المعالم في مسجد أحمد بن طولون الى الآن . ولقد طمر الكثير من آثار هذه المدرسة ، واكتشف بعض ما طمر ، ولا سيما الذي اكتشفه العالمان الالمانيان : (زره) و (هرتزفيلد) في حفريات سامراء . فقد وجدا الكثير من جدران الغرف الرئيسية المزينة بأنواع الزخارف المحفورة على حشيات جدارية سفلية يبلغ ارتفاعها أحيانا (١٢٥) سم . وبعض هذه الحشيات قد صنع من الجص

المصبوب . وأما الزخارف فمنها قد حفر على الجدران ، أو على الحشيات الجصية المذكورة وهي متصلة بالجدران، أو منفصلة عنها ثم ثبتت عليها ، ومنها ما صب بقوالب خاصة . وطريقة القوالب هذه أقدم باستعمالها من طريقة الحفر .

وتتألف غالبا هذه الزخارف من تفريعات عنبية ، أو كبزان صنوبرية ، أو مراوح نخيلية ، أو من أشكال زاهريات ضمن تقسيمات هندسية . وفي كافة هذه الزخارف يتضح الاعتماد فيها على الفن الاموي ، ولكن وجد فيها ابتكارات عباسية جديدة ، وتطورات زخرفية رائعة .

أما أشهر مكتشفات الآثار العباسية الدالة على فن النحت هي تلك المجموعة من التيجان المرمرية التي عثر عليها في منطقة على الفرات تقع ما بين الرقة (الرصافة) ودير الزور . ويحتفظ بتيجان منها الآن في متحف الميتروبوليتان ، وتيجان في متاحف مدينتي برلين واستنبول . ونظرة يسيرة الى هذه التيجان تبين لنا تلك الوشائج الفتية الرابطة ما بين أسلوبها الفني والاسلوب الفني السوري الذي كان رائجا في بلاد الشام قبل الاسلام ، ولا سيما منها تلك الزخرفة المعروفة بشوكة اليهود السورية التي كانت سائدة في زخرفة النحت في ذلك العصر . ونظرة يسيرة أيضا الى هذه التيجان تمكن الباحث من معرفة التطور الذي طرأ على فن النحت العربي في العصر العباسي والتجديد في أسلوب الزخرفة. ومن هذه التطورات والتجديدات التي مثلتها هذه التيجان فن التوريق الذي يعتبر من الابتكارات العباسية في فن النحت ، وتطور هذا الفن واكتمل في القرن الحادي عشر الميلادي .

وتوجد من ضمن الزخارف العباسية الجديدة في هذه التيجان ، الزخارف المعروفة بالمراوح النخيلية . وهي أشكال قد جمعت فيها بهيئة تفريعات دائرية وتشكيلات أخرى . وراجت هذه الزخرفة – المراوح النخيلية – في فن النحت العباسي ، وأصبحت زخرفة رئيسية . وهي تتألف بصورة عامة من تفريعات متموجة متعرجة ، تكون اما مراوح كاملة أو أنصاف مراوح أو شق منها . ثم يتخللها كثير من زخارف السيقان التي تتفرع منها مراوح نخيلية أخرى ، وبعد هذا تتخذ المراوح وأنصافها شكل الفصوص التي تكون اما علوية ، وهي المحزوزة أو المحفورة ذات الشكل الدائري . واما سفلية وهي التي اتخذت الشكل الحلزوني لشدة التوائها .

وهكذا تقدمت زخرفة المراوح النخيلية في العصر العباسي وبلغت آخر تطورها فيه . ومن الملاحظ أن هذه المراوح النخيلية لم تكن معروفة في الزخارف المنحوتة للفن الشرقي المسيحي . وانما استمدت مبادئها الاولى من فن النحت الساساني الايراني ، ثم عدلت وحسنت في العصر العباسي ، كما ذكرت ، حتى أصبحت من مميزات أسلوب فن النحت لهذا العصر .

ومن الابتكارات العباسية الجديدة في فن النحت العربي ، النحت المعروف بالمشطوف أو بالمائل .

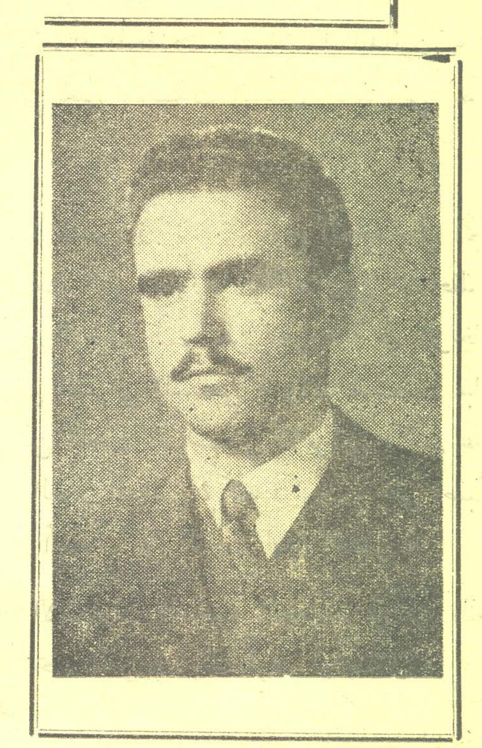
وأساس طريقته هو أن تنحت العناصر الزخرفية نحتا مائلا ، وتتقابل حوافيها بعضها ببعض ، بشكل زوايا منفرجة ، وشاع استعمال هذا النحت المشطوف (المائل) في زمن الرشيد ، ثم انتشر في مصر وسائر البلاد ، ويعتبر كما قلت ، من مميزات الزخارف العباسية .

وهناك مجموعة كبيرة من الآثار الفنية المحفوظة للآن والتي تدل على تجردها عن الطبيعة بزخرفتها المتكونة من زهريات وتفريعات هندسية تحمل أوراقا نباتية دائرية ، وأشكالا مختلفة من المراوح النخيلية ، وقد نحتت جميعها نحتا قليل البروز .

وهكذا ما انتهى العصر العباسي الا وانتشر النحت العربي في معظم الاقطار الدانية والقاصية ، وأصبح فنا كاملا مستقلا له قواعده وخصائصه ومميزاته .

أزمة

قصة بقلم : **يوسف الحاج**



في صباح يوم من أيام مايو ، دخل المعلم غرفة الصف الثاني حاملا رزمة من الاوراق البيضاء ... فوجىء لاول مرة في حياته بحلاوة أصوات طلابه وهم يهتفون هذه العبارة الروتينية : « صباح الخير يا أستاذ » .. جلس على الكرسي وراء المنضدة وراح يتأمل تلك الوجوه الملائكية الطافحة بالبشر والسعادة ، فهم يعلمون أن لا دروس هذا اليوم فقد انتهت جميع المواد ، وهذه أوراق العلامات تستقر على المنضدة تنتظر وضع العلامات التقديرية في الحقل المخصص لها مع الملاحظات واشارة الترقية الى الصف الثالث ...

قال المعلم وهو يخفي ظل ابتسامة حبيسة : « أطلب منكم الهدوء التام حتى أتمكن من تسجيل علاماتكم » فأجابه أكثر من صوت واحد : « نعم يا أستاذ » . هدوء شامل ... ابتسامات خضراء أزغفت على الشفاه الصامتة ... الصف يتمتع باضاءة حسنة ... المنضدة نظيفة والكرسي مريح ... انكب على الاوراق يملأ حقولها النهائية وهو يشعر بفيض من الحيوية ، الا أن وخزات خفيفة تحت أذنه اليسرى كانت تنغص عليه سعادته في العمل ... أحس بأن خده الايسر يلتهب ، ففركه براحته اليسرى وقال في نفسه : « انه أمر غير ذي بال ... لقد كان البارحة أيضا كذلك ... » ومضى في عمله ... غيمة صفراء من الكآبة الخفيفة تتسرب الى أعماقه ... دمعات لؤلؤية تنحدر على خده الايسر ... الايسر فقط ... ! وشرعت عضلات خده تتراقص بعنف وتنتفض كطير ذبيح ... ثمة ارتخاء في الشفة السفلى مع تورم بسيط في الزاوية اليسرى ... الدمع يستمر في الانهمار .. ثقل غريب في حركة فمه .. رعب مجنون يجتاحه ويقتلعه من جذوره ... لقد توقف منذ دقائق عن التسجيل . الجرس يقرع معلنا انتهاء الحصة الاولى .. خرج الطلاب الى الباحة .. تركوه وحيدا في غرفة الصف .. وأخذ يفكر : « يجب أن أذهب الى الطبيب فورا .. ماذا أقول للمدير وقد صافحته منذ ساعة وأنا ممتلىء عافية وسرورا ؟ .. هل أقول له انني مريض ؟ هل يمرض الانسان بمثل هذه السرعة ؟ .. ربما يفكر أنني أحاول الهروب من المدرسة لاتخلص من عبء أوراق العلامات ومساعدته في اتمام تسجيلها على السجل المدرسي .. يا الهي ماذا أقول له ؟ هل أقول له انظر الى وجهي .. الى عيني اليسرى الدامعة .. الى ذلك التورم الخفيف في زاوية شفتي السفلى .. ؟ لا . لا مفر من

الأمر . يجب أن أطلب احالتي الى الطبيب المختص بدائرتنا ...»

خرج من غرفة الصف وفي يده تلك الاوراق التي لم تكتمل ... دخل غرفة المدير فوجد المعلمين وقد التفوا حوله يسألونه عن بعض النقاط .. لم يشعر أحد بدخوله ... اقتحم الحلقة ووقف وجها لوجه أمام المدير ... سأله المدير : « هل انتهيت من أوراقك أستاذ ..؟ » فأجابه برقة : « لا ! » واحتار فيما يجب قوله وقد تسمرت عيون زملائه في وجهه تنقب عن سبب وجيه لهذا الاكفهرار الكئيب والانغلاق المفاجيء . قال بصوت حاد : « أستاذ أريد أن تحيلني الى الطبيب الآن ... انني أشعر بوعكة خفيفة . » لم يزد على ذلك حرفا واحدا ... جلس زملاؤه كل في مقعده بينما بقي واقفا قرب منضدة المدير يتأمله وهو يكتب له الاحالة المرضية .. لقد كان حزينا كاله في المنفى ...!

* * *

خرج من غرفة المدير بعد أن ودع أصدقاءه فردا فردا ... هبط درج المدرسة واحتواه الشارع الاغبر ، في تلك اللحظة كانت تخدش أنفه رائحة نزيف كبريتي ... كان عليه أن ينتظر « الباص » لينقله الى قلب المدينة ... كان يعلم أنه لا يملك سوى ليرة واحدة ، وستنقص خمسة قروش ثمن تذكرة الباص ، ثم هناك ثمن الطابع الصحي ، ودهمته فكرة مفاجئة : « ماذايكون موقف الطبيب منه حينما يقول له بأنه لا يستطيع أن يعطيه ثمن ورقة التقرير الطبي ... سيضع أمامه الطابع الصحي ... سيعده بدفع القيمة في أول الشهر بعد عدة أيام ...»

توقف الباص أمامه فصعد واستقر في مقعد خال.. تحولت الليرة الوحيدة الى قطع صغيرة كقطرات الدمع المنهمرة من جرح عميق في عينه ... سحب من جيبه لفافة ووضعها بين شفتيه ، وبينما كان يفتش عن علبة الثقاب ، ارتجفت شفتاه وسقطت اللفافة في حضنه ، فأخذها بين أصابعه وشرع يمزق قلبها ويهصر حبات التبغ الجافة ... غيمة كثيفة من الكآبة الخرساء تلفع صمته العميق وحسه المدمر .. الباص يسير ويترجرج على حجارة الشوارع غير المستوية قاصدا قلب المدينة ..

توقف لدى دكان صغيرة تباع فيها الصحف والمجلات والطوابع .. طلب من البائع طابعا صحيا وقذف على ركام الصحف تلك القطع النقدية الصغيرة.. تناول الطابع ودسه بين ورقتي هويته المهترئة ، ثم مضى نحو عيادة الطبيب . الساعة الجديدة تعلن العاشرة تماما ... العقارب تفترس الزمن .. رائحة الموت والكبريت ... دقات قلبه كانت أسرع مما يجب ... طنين داخلي يمزق أوتار حسه الراعفة ... سرب من الطيور السوداء يحوم فوق أشجار الموقع العسكري .. احساس بالتوقع المأساوي يغتال جذوره ... يفترسه ... المرض ... ألم يشبع من جسده الرقيق ؟ ـ هكذا كان يفكر ـ .

عندما دخل غرفة الطبيب وجده يطالع مجلة طبية وأمامه صحيفة يومية عليها رسالة لم تفتح بعد ... انه يعرف الطبيب معرفة جيدة ، لذلك حينما حياه نهض وصافحه بحرارة . سأله الطبيب : « ماذا في هذه المرة؟ » فسرد عليه وصفا دقيقا لما اعتراه . قال الطبيب : « صفر » فحاول أن يصفر لكنه فشل في اطلاق صفرة من بين شفتيه المرتجفتين . هز الطبيب رأسه برفق وقال : « انها بسيطة ... لا تخف ! شلل موضعي في أعصاب الخد الايسر ... ستبرأ منه في خلال شهرين أو ثلاثة .. » . ثم سحب ورقة تقرير طبي وسأله : « كم يوما تريد ؟ سأعطيك شهرا كاملا ...! » فعقب على قول الطبيب بقوله : « انني لا أحتاج الا لخمسة أيام فقط .. فالعطلة الصيفية تبدأ في ذلك التاريخ الذي تنتهي به مدة التقرير » وأدرك روح الدعابة التي حاول الطبيب أن يخاطبه بها ... أخرج من هويته الطابع الصحي ووضعه على المنضدة ، بينما كان الطبيب يدبج التقرير الطبي ... (شلل .. هل يمكن أن يصاب شاب مثلي بمثل هذا المرض اللعين ... لقد أصبت بالحمى والملاريا ، لكن لم

يسبق أن مرضت بهذا المرض ..! تسعون يوما بدون الخروج من البيت ... الناس ... فمي الملتوي ... عيني المفتوحة الدامعة ... المساجات الكهربائية التي ستصلبني على الكرسي لساعات ... هل تقبلني الخطيبة بمثل هذا الوجه المشوه ؟ يا الهي ما هذا القصاص ...) وصحا من تأملاته واستغراقه على صوت الطبيب وهو يدفع اليه التقرير الطبي ، فأخذه وقال للطبيب : « سأدفع لك ثمن التقرير في أول الشهر ...» فابتسم الطبيب ابتسامة تحمل أكثر من معنى في اللحظة التي خرج فيها المعلم من الباب .. كانت أبواب الجحيم تفتح مصاريعها ، فاسودت الدنيا في عينيه وأحس بأنه انسان مهزوم .. مهزوم ...

* * *

قال في نفسه وهو يسير حزينا تحت الشمس الكاوية التي تهمي أشعة من صديد : « الى أين أذهب ؟ يجب الانتظار حتى مطلع الشهر ... سأذهب الى دمشق ... ثمة طبيب اختصاصي بمرض الاعصاب .. الدراهم ... ان مرتبي لا يكفي مطلقا ... الافواه العشرة التي تنتظر نصيبها من المرتب ... » وفجأة اصطدم بسيارة كانت تقف أمامه .. محركها يدور .. قهقهات من داخل السيارة .. وجوه تضج بالعافية والجمال .. فتاة تربت بأناملها على الخد الايسر لشاب بقربها .. « لماذا .. لماذا يصيحون بأصوات نارية .. لماذا يقهقهون .. لماذا ؟ » وانتبه الى أنه كان يسير في وسط الشارع الايسر باتجاه الشرق .

انسل ببطء الى الرصيف المشجر وقد رماه الدوار الى بحر التشتت والضياع ، ثم تابع سيره ليقف بعد خطوات قليلة لدى موقف الباص . تحسس ما بقي لديه من نقود .. عشرون قرشا .. وابتلعه الباص .. كانت أحاسيسه تنطلق من أعاميقه .. من مكمن معتم مغبش محتبل بالرعب ... وتضيع في بحر الزحام اللا انساني ... ومخزن الذاكرة كان يطلق فكرة تلو فكرة سرعان ما ترتسم خطا أسود على وجهه فيشعر بتوتر شديد في كل أعصابه الراعفة ، وود من أعماقه لو ينطلق الباص في هوة بلا قرار فيتحد مصيره بمصير هذه الكتلةالبشرية التي لا تنفك تتفرس في وجهه كانه غول ... هذه الكتلة المشحونة كركام البضائع العفنة ..!

قاءه الباص فيما قاء من أجساد سابحة بالعرق ، وأحس بالحجارة تلين تحت أقدامه ، وبأنه يخوض في الطريق الى منتصفه وهو يحاول أن يبعد الكآبة عن مداره ... لكن شعورا مأساويا كان يفتته أشلاء على عتبة المنزل . ألقى تحية جافة على أهله ثم توجه فورا الى غرفة نومه ، وصفق الباب خلفه بعصبية ، وارتمى على السرير بكامل ثيابه وسط عاصفة من البكاء والنشيج .. سمع صوت قرعات ثلاث تنوس وتتكرر في البعيد البعيد ... وفكر وهو يدفن خده الايسر تحت الوسادة: « هل تحتوي الغرفة .. جميع الاشياء الموجودة في الغرفة على أداة للانتحار ؟ » ليس هناك سوى الكتب . وتذكر فجأة موسى الحلاقة ، لكنه هو أيضا في غرفة الجلوس ...

كانت الغرفة تحترق بلهيب أبيض .. طقطقات خفيفة تنبعث من الجدران الكلسية .. ثمة أنشودة جنائزية تهوم في الفضاء المحدود ... قال يحدث نفسه : « لماذا أعقد الامور أكثر مما ينبغي .. ؟ ألم يشف صديقي من هذا المرض في السنة الماضية ؟ لماذا أصبحت نفسي قصرا للكآبة الخفية ؟ »

دخلت أمه فجأة وقالت له : « ما بك اليوم يا ساطع ؟ » فلم ينبث كلمة .. وظل متمددا على السرير (يا الهي انها لم تر وجهي .. ماذا أقول لها ؟ أأقول لها تطلعي يا أماه الى وجهي المشوه ؟ لا . لم يحن وقت الصدمة .. يجب أن أصبر .. يجب أن أكابر.. يجب أن أفر الى حيث لا يراني أحد .. وجهي مشوه .. لكن لماذا ؟ أأنهض وأجابهها بالحقيقة ..؟ ألم تسمع بكاء الجدران الاربعة حتى الآن ؟) استجمع قواهالمنهاره وسحب رأسه الاصفر من تحت الوسادة ، وقال دون أن يتطلع الى أعلى : « أماه ! لقد أصبت بشلل في وجهي » واختنقت العبارات في فمه الملتوي ، وشعر بالغثيان والتشتت العنيف ..

اقتربت الام وأخذت رأسه بين يديها وضمته الى صدرها وقالت له : « لا شك أنك تهذي يا ساطع .. »

فعقب على كلامها بقوله : « انها الحقيقة .. الحقيقة المرة يا أماه .. نحن دائما نتهرب من الحقائق .. أرجوك أن تتركيني وحيدا الآن .. دعيني أفكر .. أماه أرجوك .. » وهبت عاصفة من البكاء المزدوج .. فقدت الغرفة حدودها .. وأصبحت أتونا من المشاعر المتأججة! سمع الباب يغلق برفق ، فعاد اليه شيء من الاطمئنان وراح يفكر : « هل من المعقول أنها انتهت الى الماخورة الحمراء ؟ هل صحيح ما قاله صديقي في الليلة الفائتة بينما كنا نشرب ؟ ان لهجته كانت عفوية .. هو لا يعلم بأنني أحبها .. أنا لم أخبره بذلك .. هل قصد أن ينال مني في حديثه العابر ..؟ » وطن في أذنيه ، في صميم دماغه ، صوت احدى البغايا وهي تحدثه عن السقطة : (انه خيط رفيع واه يفصل الفضيلة عن الرذيلة ... الخير عن الشر ... النور عن الظلام .. مجرد خطوة ناقصة ... وبعدها نذعن ونقبل كل شيء .. نفقد القدرة على الاختيار .. ويموت الرجاء وتبدأ الهاوية المريعة .. وتمر السنين وتتلاشى نضارة الصبا ، وينضب معين الانوثة بعد أن تشبع منه خفافيش الليل .. ونصبح أجسادا باردة في الزوايا المظلمة تمضغ السأم وتجتر تفاهة الحياة .. ونعيش بقية الحياة كالنساك ان لم ننتحر .. كثيرات منا ينتحرن قبل أن يذوي شبابهن ، يقطعن معاصمهن بحد زجاجة أو يصببن على أنفسهن البترول ويشعلن النار في أجسادهن البضة .. وهكذا تبدأ أبدية جديدة بالنسبة لهن ..) تساءل في نفسه : « هل ستنتهي هي الى هذا المصير وهي التي كانت تجلس بجانبي كالملاك وعلى ثغرها ابتسامة خفية شفافة .. أسطورة البراءة تتماوج على بحرها النقي .. لا . ان هذا أكثر مما أحتمله .. »

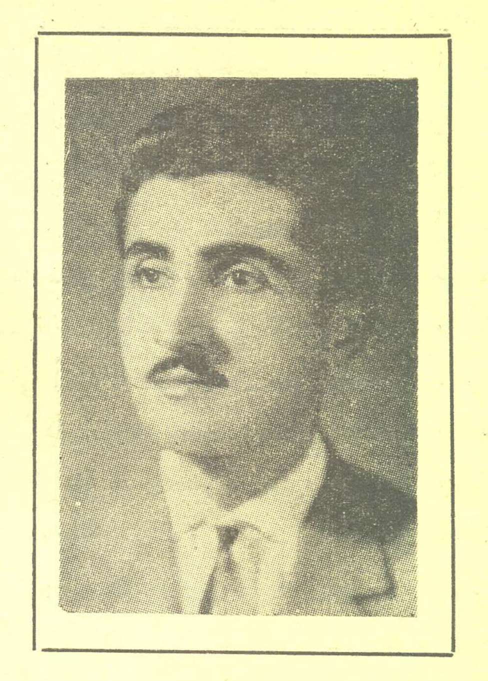
عذوبة في السماء تدفع الليل رويدا رويدا نحو الغرفة الغارقة بالمرارة ، وقد جف حلق ساطع كجفاف الارض العطشى للمطر .. وراح يتململ في غسق الغرفة .. سجين في زنزانته الضيقة ، يطحن بين رحى القدر ..! لم يدر كم من الوقت استغرق في غفوته .. نهض وتوجه نحو مفتاح الكهرباء . أداره بعصبية فغمر الضياء الغرفة ، ثم وقف فجأة أمام المرآة الكبيرة .. هذه المرآة التي وقفت خطيبته كثيرا أمامها لتصفف شعرها وتصلح هندامها .. ونظر الى وجهه وتأمله بعمق وأحس فجأة بالدوار فتناول زجاجة عطر كبيرة وقذف بها المرآة فتساقطت قطعا صغيرة متناثرة في أرجاء الغرفة الحزينة ، وبعد أن أطفأ المصباح الكهربائي ، ارتمى ثانية على السرير .. لقد أضحى يكره وجهه المشوه .. انه يخاف من نظرة الناس الى هذا الوجه .. وتذكر الخطيبة الجميلة وتمتم : « ليتها هنا لانهي الموضوع بسرعة .. سأعطيها خاتمي أيضا .. لن أقبل منها التضحية والشفقة ! » .

كان الليل يتغلغل بحنان .. أمواج غامضة تلطم قلبه المريض ، مشحونة بشيء من الخدر الثقيل .. قهقهات صاخبة .. وجوه جميلة .. محرك سيارة يدور ..

* * *

في الصباح الباكر دخلت أمه الغرفة وأيقظته من نومه ، ورجته أن يتأهب للسفر الى دمشق ، ثم وضعت بين يديه مبلغا من المال – كانت قد أدخرته ليوم عرسه – وبطاقة كتب عليها اسم طبيب اختصاصي بالاعصاب .. وأخذت بعد ذلك تنضد له ملابسه في جوف حقيبة السفر ..

لم تمض ساعة حتى خرج المعلم ساطع وقد وضع على عينيه نظارة سوداء ، يحمل باليد اليمنى حقيبة كبيرة .. وفي السيارة التي كانت تقله الى دمشق أحس ببراعم الامل الكبير تزغف وتتفتح بين حنايا قلبه المتعب . وراح يتأمل الطريق الطويل .. هذا الطريق الذي سيسلكه بعد فترة ، حينما يعود وجهه الى طبيعته .. وأحس بأن الازمة تنتهي في ابتسامة رقيقة تداعبه بها شابة جميلة تجلس بقربه ، ابتسامة لا تخلو من فضول يحرر بحر الزجاج الاسود الذي يستر عينيه .. ابتسامة تسأل عن سبب واضح لهذا التدخين المتواصل الذي يملأ جو السيارة بضباب عطر .. بضباب كثيف يغلف الاحلام الجائعة .. وأدرك فجأة أن خاتم الخطوبة لم يكن في اصبعه ، فتمتم وهو يشعل لفافة من أخرى : « كم كنت سخيفا البارحة !! » .



آمنت بالشعب

شعر : احمد سليمان معروف



سكبت شعري لحنا دافئا وهوى ... سمحا وعاطفة من رحمة الباري
وطفت أمسح بؤس البائسين فلي ... نزف الجراح وفيض المدمع الجاري
حملت نفسي هموم الناس لا برما ... قد جل عن برم عزمي واصراري
اذا شكا الهم قلب عابر نزلت ... شكواه مني على بر وايثار
أوفي السعادة عندي أن أصبر الى ... نار وينجو غيري من لظى النار
وأن أصبر الى فقر أموت به ... وينعم الناس في يمن وايسار
رضيت بالخير لا قصد الثواب به ... ولا مخافة آثام وأوزار
آمنت بالشعب ايمانا وهبت له ... نفسي وشعري وأوطاني وأوطاري
عبدته وهو لا يدري وهمت به ... فهل أثاب على حبي واضماري
ضممته بين أحشائي على وجل ... ضمي لطيف حبيب العود معطار
ورحت أصفيه من ألوان عاطفتي ... وأصطفيه بمكنونات أسراري
فداه نفسي ـ على حب الحياة ـ وقد ... يفدى الحبيب بأهل الدار والدار
فحاليات رغابي من منابعه ... وثورتي قبس من زنده الواري
والشعب ملهم أشعاري وما رضيت ... لولاه أن يستذل المدح أشعاري
آمنت بالقدر الجبار يدفعه ... ايمان شعب كجند الله جبار
آمنت بالصرخة الكبرى يجلجلها ... شعبي فتغمر أفكاري وأمصاري
لي أخوة في ذرا الاوراس شردهم ... ظلم الطغاة .. فيا للعرب للثار
لبيكم اخوتي لبيكم .. ودوت ... مشيئة الله كالبركان كالنار
لبيكم اننا نرعى مصائركم ... وندفع الضيم عن أهل وعن جار
شعب الجزائر هل من ثورة انف ... كزاخر السيل تدوي أو كاعصار
وانهض فداك ابي من كل غائلة ... واعصف بطغمة أفاك وفجار
وارحمتاه لشعب عز منقذه ، ... وضل ما بين نخاس وسمسار
يا أيها الشعب كم حققت من حلم ... معربد في حنايا الصدر هدار
كم عشت أرزح في قيدي وأنقله ... وضقت ذرعا بآرائي وأفكاري
حتى طلعت على الدنيا فها أنذا ... أنكرت قيدي ولم أستحي من عاري

الازدواجية في الأدب

بقلم : علي السيد هاشم

الازدواجية في كل شيء وضع يحتاج الى التأمل والدراسة والى معرفة أسبابه . والازدواجية حالة لا يمكن أن تبعث على الاغفال وعدم الاكتراث . وفي المجتمعات التي تكون أوضاعها غير سليمة وتنتابهاالازمات العنيفة وتعبث بها المشاكل المتعددة وتنحدر مجموعاتها البشرية الى مستوى رديء وتتعقد فيها الحياة الى أبعد حدود التعقد ، في مثل هذه المجتمعات التي تعيش حياة الانحطاط والتأخر تنتشر الازدواجية وتجد لها صدى عميق في تربة هذه المجتمعات وتصبح وكأنها حالة طبيعية ، لانها نبتة هذه المجتمعات ولانها سلوكالمجموعات البشرية في هذه المجتمعات . ومن هذا الشيء المقتضب الذي أسلفناه نحاول ان نلقي نظرة على الازدواجية في الادب . واذا كنا نضطر الى قبول الازدواجية في سلوك الفرد الذي تفركه ماكنة المجتمع المتردي وتفرض عليه اداء فريضته الصلاة عشاء وسرقة اخيه البسيط الذي يقاسمه الحياة والمعتقدات الدينية وقرابة الاواصر والقومية – في منتصف الليل . اذا كان لا بد من تعليلنا واعترافنا بهذه الازدواجية في « سلوك » « بشر » يدور في الماكنة المتداعية ، فما هو موقفنا من الازدواجية في الادب وهل يمكن الاعتراف بازدواجية الاديب والفنان وهل تختلف ازدواجية الاديب والفنان عن ازدواجية الآخرين . هذه اسئلة نحاول الكشف عنها هنا ونحاول ان نهتدي الى أجوبة معقولة لها . وقبل محاولة الكشف عن هذه الاسئلة والاجابة عنها نريد أن نعرف ماهية الازدواجية في الادب . ولا تهمنا في هذا المجال التعريفات الكثيرة لمصطلح الازدواجية ، فالذي يفهمنا معناه العام الواضح . ان الذي نقصده بالازدواجية هنا هو التناقض الواضح بين الدعوة والسلوك ، بين الاعلان والحقيقة ، بين القول والعمل . وعلى هذا الفهم للازدواجية نريد أن نحدد معناها في الادب . ان الازدواجية في الادب تعني ان لا يظهر الاديب او الفنان على حقيقته أمام القارىء .. تعني وجود التناقض البين بين قوله وشعوره الحقيقي .. يقول ما لا يشعر وما لا يطبق ويعمل .. تعني أن يناقض الاديب « الانسان » الاديب « على الورق » . ان الازدواجية تفترض وجود هوة واسعة بين « آثار » الكاتب والفنان وبين شخصيته وسلوكه الفعلي . ان الاثر الادبي ، شعرا أو نثرا ، لا يمكن أن يفهم الا على انه تجربة حية يعانيها الشاعر او الكاتب .. هذه التجربة التي تكشف عن المشاعر والاحاسيس الحقيقية لصاحبها . وان الاثر الادبي ليس الا التجسيد الفني العملي لتجربة الكاتب أو الشاعرالحية الصادقة ، وليس هو عملة مزيفة ليس لها رصيدحقيقي . فاذا عرفنا ان الازدواجية في الادب تعني التناقض الواضح بين « آثار » الاديب أو الفنان وبين حقيقة سلوكهما ومشاعرهما الفعلية .. البعد الشاسع بين دعوة الاديب واعلانه وبين تجسيده الفعلي لهذه الدعوة وهذا الاعلان .. اذا عرفنا ان هذه هي الازدواجية التي نقصدها .. فهل نقرها .. أو نقف ضدها .. هل نعترف بها او نرفضها .. هل نجد لها الاعذار او نحكم بعدم شرعيتها . وقبل ان نسجل رأينا النهائي دعنا نرى ما هو نقيض الازدواجية حتى نصدر حكمنا الصحيح على الازدواجية ونقيض الازدواجية الواضح هو « اللاازدواجية » فدعنا نرى ما معنى « اللاازدواجية » وخاصة في مجال الادب .

ان « اللاازدواجية » لا تعني مطلقا ان لا تتعدد مشاعر الفرد وتكثر أحاسيسه .. فعدم تعدد مشاعر الفرد وكثرة أحاسيسه يعني فساد طبيعة الانسان ، لان

طبيعة الانسان والظروف التي تمده بالحياة تفرض عليه مشاعره المتعددة وتغرز فيه الاحاسيس الكثيرة • انه ليس حراما أو شيئا محظورا ان تجيش في صدر الانسان المشاعر الوطنية عندما تستدعيه حادثة أو يثيره نبأ ، ومن ثم بعد ذلك بزمن تثور في أعماقه مشاعر الجنس ، ويلفه بعد ساعات احساس بالحزن والالم وقد تتدفق عواطفه من بين عينيه قطرات ساخنة ، ويثور ، هو نفسه ، في مناسبة ما صارخا في وجه أخته الصغيرة لانها تركت قدح الماء يسقط من يدها لتتلقاه أرض الغرفة الصلبة هشيما ، ولكنه ، هو نفسه ، يجلس في الليل مع نفس أخته وأخوته يقص عليهم أحاديث التسلية ويداعبهم بنكاته وابتساماته العذبة ، وينام بعد ذلك لتحتل مخدعه أحلام حمراء كلها شهوة وظمأ للجسد !!•• ان هذا السلوك ليس ما يوصف بالشذوذ أو التناقض بل هو سلوك طبيعي بالنسبة لانسان تغلي في دمه ثورة الشباب • وهذا السلوك الطبيعي الذي يسلكه هذا الشاب هو وأمثاله من الشباب سلوك قريب من اللاازدواجية وبعيد عن الازدواجية • ان هذا الشاب يمثل نفسه ، وان سلوكه يصدر عن حقيقة طبيعته وتركيبه البيولوجي والعقلي وبيئته الاجتماعية • وعلى هذا يمكننا القول بأن « اللاازدواجية » في الادب تعني أن ينطلق الاديب أو الفنان على سجيته وأن يفتح أمام أعماقه كل السبل وكل المجالات التي يمكن أن تنطلق فيها وتتجسد فيها امكانيات تحقيق آمالها والتخلص من آلامها وتعني أن يقدم الكاتب أو الفنان شعوره وما يعتلج في أعماقه هو نفسه لا ما يفرض عليه •• لا ما يجبر عليه ، بل على الفنان أن يرسم صورة نفسه ، أن يعطي للقارىء المشاعر الحقيقية والاحاسيس الفعلية التي تدفع قلمه الى الورق مهما كانت هذه المشاعر وهذه الاحاسيس ومهما كان تأثيرها في القارىء ورد الفعل بالنسبة لها ، فقد تكون مشاعر الفنان وأحاسيسه شيئا لا يمكن هضمه كريه الطعم وغير مقبول ، وقد يقف القارىء – باحاسيسه ومشاعره وأفكاره – ضد أفكار هذا الفنان وأحاسيسه ومشاعره ، وقد يحدث العكس وتكون أحاسيس الأديب وأفكاره ومشاعره نغما عذبا ينعش أعماق القارىء وزادا فكريا ذكي الرائحة تستقبله نفس القارىء بفرحة كبيرة وعندئذ يجد أدب الكاتب صداه الطيب في نفس القارىء ويكتسب حب وصداقة القارىء الروحية ، غير أن الشيء المهم في هذه الناحية هو ان الاديب عبر عن نفسه وشعوره وأحاسيسه بصدق وصراحة وما على القارىء الا أن يستجيب لشعور الكاتب أو الاديب أو ان يقف ضده أو يقف منه موقفا آخرا حسبما يتركه أدب الكاتب من انطباع وتأثير في نفس القارىء • وهذا يعني أن « اللاازدواجية » تجيء مع الصراحة والصدق والاخلاص • فاللاازدواجية لا تعني – بأية صورة من الصور – ان يعبر الاديب ويكتب عن شيء معين يكاد يكون مفروضا عليه وليس بوسعه أن يكون بمنجى عنه ، بل على العكس هي تعني حرية الاديب • والاديب العربي المخلص لفنه ولنفسه والذي يعمل من أجل مجتمعه العربي والانسانية بأمانة وايمان ، عليه ان يكون أدبه صادرا عن احساسه الصادق ، وشعوره المنبثق من أعماقه ، وثمرة لتفاعله مع الحياة التي يعبر عنها ، ويجب ان يصدر أدبه عن تجربة يعيشها وتعيش في قلبه وفي وجدانه وأعماقه • وبعد أن القينا بعض الضوء على « اللاازدواجية » وعرفنا مدلولها ومعناها في المجال الادبي فسوف نحاول تحديد موقفنا من الازدواجية في الادب • ولقد ذكرنا سابقا بأن اللاازدواجية هي الصراحة والصدق والعفوية والانطلاق الذاتي وهذا يعني أن الازدواجية تعني عكس ذلك انها تعني التناقض بين الدعوة والسلوك ، بين القول والعمل •• أليس هذا هو الزيف بعينه •• اليس هو التصنع •• ان الازدواجية سلوك غير سليم وغير طبيعي فهل يختار الاديب أن يكون « مزدوجا » • ليس شيئا طبيعيا أن يكون أي انسان مزدوجا ، فليس في الازدواج الا التصنع والافتعال والاصباغ الكاذبة • الحماس لقضايا الدين في وقت يستطيع فيه اللسان أن يقوم بأعظم دور ، واقتراف اثم مع ذات الزوج في وقت

يسوده الظلام ، هذه هي الازدواجية وهذا هو التصنع والنفاق • ان الازدواجية منكرة على الاديب في سلوكه وأدبه • منكر على الاديب أن يرتشي أو يسرق أو يتعامل مع المستعمرين وأعداء الشعب ، وهو يعلن سخطه ونقمته في كتبه على الرشوة والمرتشين وعلى السرقة والسارقين وعلى الاستعمار والمستعمرين •• فأي مهزلة يجسدها القارىء عندما يشاهد الاديب الذي يدعو الى الاصلاح يعزز الفساد ويجد الانسان الذي يناهض الاستعمار وعبيده في كتاباته يتعامل معهم بشخصه ان ازدواجية الاديب هذه ما هي الا عملية تغطية لنفسيته الحقيقية وما هي الا استخدام عملة مزيفة لشراء السمعة في عالم الادب والكتابة ونوع من الوصولية والتمويه • ومع اعترافنا بخطورة الازدواجية وضررها على الادب والادباء فاننا سنلقي بعض الضوء على مفهوم السلوك لدى الكاتب أو الشاعر الذي هو « فرد » •• فأنا لا أعتقد بأن « الشاعر تنتابه حالة وطنية فينشد شعرا وطنيا •• ثم تصيبه حالة نداء جنسي فيضاجع الفتيات وهو ينشد شعرا اباحيا وغزليا [1] » بأنه « مزيف » ولكنه قلق •• فالروح الوطنية لا تمنع الشاعر او الكاتب أو أي فرد من أن يشبع رغباته الجنسية ، وان كانت الروح الوطنية تدعو الى اشباع الحاجات الجنسية بالطرق الشريفة ، ولكن الازدواج والزيف هو ان الشاعر تنتابه حالة وطنية وينشد شعرا وطنيا ولكنه لا يعمل في الحقل الوطني بل ربما قد يقف ضد الحركة الوطنية ـ في السر ـ •• ان الازدواج هنا ، وليس الازدواج في الشعر الوطني والشعر الغزلي • والعمل الوطني لا يمكن أن يفهم على أنه « نوبات » يأتي بعدها الشعر الوطني • ان العمل الوطني مشاركة فعلية مع الشعب وتجربة نضالية تستدعي كل شيء في الانسان حتى دمه الغالي ، فاذا كان الادب يصدر عن مثل هذه المشاركة وهذه التجربة ، فهو الادب الوطني •• وليس الادب الوطني رصف الكلمات المستهلكة ، والشعارات الشائعة ، واصطناع الحماس والثورة •• انه تجربة •• وانفعال صادق •• ومشاركة فعلية •

اننا لا يمكن أن نقر الازدواجية لاننا لا يمكننا أن نوافق على الزيف وان نشجع وضعا غير طبيعي وامرا غير سليم • والدعوة الى « اللاازدواجية » في الادب هي نفسها دعوة الى حرية الاديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه الحقيقية مهما كانت هذه المشاعر وتلك الاحاسيس ، فالشيء المهم بالنسبة الى الادب ، والى الحقيقة ، هو الصدق •• هو الصراحة ، وما على القارىء الا ان يستجيب أو لا يستجيب ، ان يقر او لا يقر •• ان يرضى او لا يرضى •• أن يوافق أو يعارض •• ان هذه المواقف متروكة له لذوقه ، لاحساسه ، لاحتياجاته الروحية والفكرية • وعندما ندعو الى حرية الاديب في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه الحقيقية التي لا تناقض سلوكه العام وشخصيته الحقيقية بغية العادة عنازدواجية ضارة ، عندما أدعو الى هذا فأنا ـ كقارىء عربي ـ أفضل في هذه المرحلة من مراحل تطور المجتمع العربي الادب الذي يتحدث عن مشاكل الامة العربية ، ويواكب النهضة العربية القومية في الوطن العربي بكل ما تتصف به هذه النهضة من تحفز وانطلاق وبناء وكفاح وبكل ما تحتاج اليه من صمود وتضحية واخلاص وثورية بناءة ، ولكني مع ايماني بضرورة هذا الادب الكفاحي المنطلق من رغبة ووعي وحرية الاديب الذاتية ، فانني لا أطلق الاحكام التجريمية ضد الاشكال الاخرى من الادب ولا يحق لي أن أطلب من الفنان هذا النوع من الادب أو ذاك دون أن يقدمه لنا هو بطواعية ورغبة وحرارة ذاتية • ان الادب الصحيح هو الذي ينبع من نفس الاديب ولا ينتزع منه انتزاعا •• كما اننا ليس من حقنا أن نسمي الادب الذي نحب ونرغب بأنه « أدب » وبأن الادب الذي لا نحب ولا نرغب بأنه « ليس من الادب » حتى وان كان مبعثه الصدق والاخلاص وتتوفر فيه الشروط الفنية • ان من حقنا ان نقول انه أدب غير مفيد

---

(١) جورج جبور « العدد الحادي عشر من مجلة الآداب » ١٩٥٦ •

أو أدب رجعي .. ولكنه مع كل ذلك فهو « أدب » وله مقوماته الفنية والتي قد لا نرضاها ونعارضها . ان الذين يحاولون فرض موضوعات معينة على الاديب – باسم الالتزام – لم يفهموا معنى الالتزام في الادب حق الفهم ، فالاديب او الفنان هو الذي يختار ما يلتزم وفق ظروفه وأفكاره وارتباطاته الاجتماعية ودوافعه الذاتية فالفنان لا يمكن أن يلتزم موضوعات معينة الا اذا « أراد » هو التزامها . من كل ما قر نجد أن « الحرية » هي الجو الصحيح الذي تتفجر فيه طاقات وامكانيات الفنان وهي التي تكشف عن ابداعه وعن قصوره ، عن تقدميته وعن رجعيته ، وعن نجاحه وعن فشله . الحقيقة ان «التزمت» مكروه في كل مجال من مجالات الحياة وهو يؤدي الى الفشل في معظم الاحوال . أما في الادب « فالتزمت » عدو مقيت للاديب يعمل على اجداب روحه وتجميد ينابيعها الثرة . ان التصنع والافتعال والتزمت والاطلاق .. والاتهام .. والغرض كل هذه الامور ليست في صالح الادب بل ضده .. بل كلها انصال تغمد في روح الادب الصحيح . ان الادب الصحيح – في رأيي – هو ثمرة للحرية الواعية – والفكرة النيرة ، والتجربة المعاشة الصادقة ، والانطلاق الذاتي ، والعفوية المهذبة ، والتفاعل الحر والنقد الموجه البناء ، وهو انبثاق عفوي عن المعرفة الصحيحة والادراك السليم والتمثل الحي الواعي للواقع ومشكلاته . ان حرية الكاتب في الكتابة – كما يشعر ويحس – وحرية القارىء في الاستجابة والرفض لما يقرأ – كما يرغب ويشاء – ان هذه الحرية هي الكفيلة بالقضاء على الازدواجية في الادب .

خائفة

بقلم : خالدة عبد الله

لجأت الي بعينيها الواسعتين ودمعتها الخضراء الكبيرة وصوتها الدافيء وحركتها المتأججة المتحدية . والثلاث والعشرون عاما تلف كل هذا بهالة ضبابية رائعة ...

وقبل أن أسألها ما بها اعطتني عدة صفحات وقالت ... اقرأي ... واختفت من أمامي ...

اني خائفة أنا التي ما عرفت الخوف عمري ... ومخاوف أكبر مني تكاد تبتلعني ، وتتركني ركام انسانة ...

لن تفهم أنت أو غيرك أيها الحبيب مخاوفي وقد تهزأ بها لذا لن أعرضها عليك بل سأدفنهاأعماقي وأهرب بها ... أهرب منك ومن مجتمعي وأهلي ومدينتي ومن كل من يعرفك ويعرفني ... أهرب بمخاوفي بآلامي لانها تخصني وحدي ...

قد تستغرب حديثي الثائر المستهتر ولكنه الواقع اخبرك به ... انك تعرف اني أحبك واني ما أحببت غيرك ... فأنت الذي أطلعتني على الحياة وانتشلتني من الضياع وأفهمتني معنى النشوة الحلوة والرعشة المنبثقة من أعماق الفكر والامل معنى الحب الصحيح البعيد عن كل غاية ومطلب الا ذلك اللقاء الخالد بين انسانين ذلك الحب الذي يضع الانسان مباشرة مع انسانيته ويلتقي به مع الانسانية جمعاء ... وجعلتني أعيش بدنيا ملونة بألف لون عبق .. همستك الراعشة ، كلمتك المهدهدة، يدك الحانية نظراتك المتأملة ، نضج أفكارك لباقتك ... كل هذا خلق مني انسانة جديدة أكبر وأعمق وأنضج من عمري ... لن أنسى أيامي معك ما حييت ، لن أنسى ساعاتي المبدعة بين يديك أعب من النشوة وأسمو مع الفكر وأطير مع الحلم ، وافنى بالعمل ، انصهر في النضال ... تلك الساعات الخالدة التي ارتفعت بها وتخلصت من أرضيتي وتفاهتي وتفاهة من حولي اللواتي يعشن القشور ويتعلقن بالاوهام ... تلك الدمى الملونة بعيونها الزجاجية ورؤوسها الفارغة الا من شعر مصفف وزخرف خداع .. بينما أعيش أنا الحلم الرائع يلملمه اللحن المتموج والفكر المتقد والعمل المنتج والحنان الدافيء والانتاج الفني يحضن كل هذا بزهو وافتخار..

وكنت ولا تزال رجل عمري وسعادة أيامي ... أتمنى الموت الهلاك على رؤية عضلة بوجهك تتحرك بألم على ارتجاف نبرة صوتك في الهاتف ... فأنا طفلة بين يديك استمع اليك ... الى همسك كما يستمع العابد الى مناجاة ربه ...

لم أقل لك لا مرة واحدة ولا يمكن أن أقولها لك لاني أعرف أنك حريص علي أكثر من حرصي على نفسي وتدرك مصلحتي أكثر مني وتخاف علي خوفك على كنز ثمين فاذعن لك واطيعك وأرى العقل فيما تقول ذهبت معك أكثر من مرة الى الطبيب واستسلمت له ولك دون تذمر أو شكوى ... وارتضيت حكمك لانه صدى حكمي ... لم أقل لك دع هديتك لي فاني ضنينة بها ... ولكني الآن خائفة ... لن تفهم هذا لانك بطل وقوي وتهزأ بكل ضعف أو تراجع ... أما أنا فاني لا أزال تلك الصغيرة الصغيرة التي ترجف خوفا ... اني

خائفة فصورة تلك الالة الراعبة تتحرك بداخلي تقتلني ..
لا لا أستطيع اعادة العملية أكاد أجن ... لا أستطيع : افعل بي ما تشاء لن استمع اليك ... لا أستطيع اني أصيح ملء صوتي أصيح بك بالوجود اني خائفة ... اقتلني اذبحني اقذفني بعيدا لا أستطيع ... اني منذ تلك اللحظة التي عاثت فيها يد الطبيب بالته المرعبة في داخلي وأنا ارتجف وتقارير الطبيب عن سوء صحتي خير شاهد على ذلك لا لن الجأ الى الآلة التي تمزق جسدي لانها تمزق روحي ويتلقى كياني الطعنة وينزف قلبي ... منذ العملية الى الآن وأنا أعيش في رعب قاتل ... لن أطيعك وسأقول لك لا ... بل أقولها الآن ... لا ... انك لا تزال تراني تلك الطفلة التي أحبتك ووثقت بك ورأت الدنيا من انفراج شفتيك وشعاع عينيك واني لكذلك ولكنك أنت دون غيرك خلصتني من طفولتي وسذاجتي وعلمتني أشياء وأشياء حتى غدوت فخورا بي فخورا بأفكاري المتحررة وانفعالاتي العميقة وبانطلاقي المتزن وحريتي الواعية التي أعيشها وأتمسك بها ... وعلمتني أيضا أن أتحمل المسؤولية والاخطاء بجرأة واقف من كل انسان من كل حادثة موقف الناقد الحذر وان لا أتقبل شيئا على أنه حقيقة ما لم اقتنع أنا ذاتيا بذلك ما لم يقتنع مني القلب والعقل ... لذا تراني أقول لك لا ... لا ... لا أريد ... لقد اتفقنا أنا وأنت على الحياة معا وحددنا علاقتنا وارتباطنا بعد دراسة وفهم ، وارتضينا تلك اللقاءات الرائعة على الف حلم ساحر ... وسخرنا من التقاليد والمسؤوليات والحياة العادية ... وعشنا أفكارنا المنبثقة والمتمشية مع نظرتنا الى الانسان والى الوجودالانساني .. وكانت علاقتنا منسجمة مع ضياعنا ، مع انسلاخنا عن الركب المربوط الى مصيره المقيد الى سلاسل سجانه ... كانت لكل منا حياة مشتركة مع الآخر وحياة مستقلة ، وله اراؤه ومثله ودروبه وأحداثه ... وحريته ... وربطنا مسؤوليتنا بهذه الحرية ...

وأنا الآن حرة ومسؤولة عما أقوله لك ... لا أريد الخلاص ... مللت الفضيحة ... مللت ذهابي الى الطبيب وعرض مقدساتي عليه ... عرضها دون أن أدع عضلة بوجهي ترتجف بادنى انفعال ... اذهب بارادتي الى ذلك الطبيب في البلدة البعيدة وتنهي العملية وأعود الى بلدتي وأخفي مشاعري في عمق أعماقي وتفخر أنت بي وبقوة شخصيتي فأنا صنيعتك هكذا أردتني وهكذا كنت ... ولكنني في الليل عندما أخلو الى نفسي يقتلني الالم والندم وأشعر بحقارتي وخاصة عندما أستعيد الحادثة فأرى تلك القطعة الصغيرة يرفعها الطبيب بيده الغليظة بل بملقط صدىء فتهتز في قلبي في روحي .. لا لن الجأ الى الالة .. سأحتفظ بتلك الدفقة الدافئة تمور بين جنباتي ترف قرب قلبي ... لا تدهش من قولي أو تغضب ... فأنه رأي أقوله بحرية وارادة واعية ...

بامكانك الاعتراف بي وبسلوكك معي وبامكانك أن تنكر ... انكر ان شئت فلن اتمسح على أقدامك وأرجوك أن تعترف بعملك ... لا لن أرجوك فأنا لا أرجو خالقي ولا أتذلل لالهي ... كما لن أقاضيك لان كبريائي فوق الحكم والقضاء وأنت تعرف هذا ... انكر حتى أعد نفسي المسؤولة الوحيدة عن الحادثة وأتحملها بصبر وجرأة وحنان ... الست انسانة واعية ؟... الم تعلمني أنت دون غيرك أن أتحمل مسؤولية أخطائي وحياتي ؟... ولا تظن اني نادمة على فعلتي ... أو أني أرى بها خطيئة أستحق معها الرجم ... لقد أحببت ولست نادمة وشاركت الحبيب وتقبلت بلهفة هديته ونتاج حبنا وعطائنا المشترك واني أحافظ عليها محافظتي على حياتي .. اليست جزءا منك أيها الحبيب لي اليست لحظة من لحظات نشوتي بين يديك ؟ تلك النشوة العلوية نشوة الخلق والابداع .. نشوة اللقيا الروحية انها ... أليست هذه اللحظة استمرار للوجود بكل معناه من الخطيئة حتى اندم عليه ... ما أن عشت بين يدي الحبيب الحياة الحقة

وكنت معه أنا أنا بعرى الروحي ... لا لست خاطئة ولو في أهل الارض ...

سأهرب الى بلدة بعيدة وأتركك ... قل لا ... لا تعترف بي ... انكر سلوكك معي فلن أتراجع أو أخاف بل ادعك لشعاع قمر شهد ليلتي معك ... شعاع قمر عانق من شقوق النافذة نشوتي على صوت العاصي الذي يئن تحت أقدام شجيرات فتية لثمت أطراف سيارتي بحنان ... أتركك فالغرفة الصغيرة في الشقة الانيقة المستريحة بحارة من حارات بيروت البعيدة تعرف سري وتذكرك به ... سأتركك فالبحر الوسيع المدى يوشوشك وقد لجأ كل الكون الى الظلام ... يوشوشك يحدثك يهمس بك بقلبك يسألك عني انك ولا شك تسمعه كما اسمعه أنا تسمع همسه في عمق الليل وفي طريق عودتك والنشوة ملء روحك الى ذلك العش الهادىء تمضي به أجمل وأمتع ليالي عمرك وفتاتك الى قربك بشيء تخبط خطوها بسكر روحها ونشوتها ، تسبقك الى هناك حيث تتجرد من كل ما يعلق بالانسان ... كل هذا يحدثك عني ويذكرك بانسانة استسلمت لك وشاركتك حياتك وتركت لك قيادها وحياتها ووثقت بك ... انسانة كنت لها كل شيء ثم اختفت من دربك ... انكر قل لا ... وحبك لن اشتمك لاني أن أردت عصاني لساني ورفض قلبي ، لا لن اشتمك او الومك بل سأهرب بعيدا بعيدا أهرب وأنا راضية وتلحقك لعنتي ولعنة دفقة بريئة أحملها بين جنباتي ... حكمت عليها بالذل والعار ... سأهرب دون أو أن أخبر أي كائن برحيلي ووجهته ... ولمن أترك هذا الخبر الام مسكينة يمنعني دمعها من الذهاب أو مجتمع يرى في ابنة الخطيئة والعار أو حبيب يرفض مشاركتي المسؤولية ... أو أخ يضع حدا لحياتي ...

سأهرب بمنحتي الرائعة وأعيش واياها في كوخ حقير ، في دير صغير ، وتعيش أنت لعملك ومشاغلك وواقعك ولكنك تعيش تشردي وضياعي ...

قد تجد يوما من تستحق أن تمنحها الاسم والولد ... او من ترغمك على الاعتراف بسلوكك وتنسى فتاتك الانسانة بنت العمل والفكر ... ولكن دعني أهمس بأذنك بأنك واهم لانك لن تنسى انسانة أحبتك للحب وآمنت بك ... انسانة عشت معها على أروع لحن انسانة وجدت بعمق نظراتها ذاتك وبدفء حنانها معنى وجودك فأبعدتها بارادتك من حياتك وقذفت بها الى المجهول ... الى ذلك العملاق الذي يضمها الى رتل الضياع ...

دمشق ـ خالدة عبد الله

تضحية

تعريب عبد الكريم قميرة



لم تعد رجلاي قادرتين على حملي وأنا أصعد درجات السلم . كانت الحديقة ، بفضل شهر حزيران مكتظة بالازهار حول بيتنا الزاهي ولكنني لم أكن أرى شيئا .

أغلقت الباب ورائي بعصبية وانفعال وظللت واقفة في ظل المدخل متكئة الى الحائط بلا مبالاة .. وفجأة ترامى الى أذني صوت بكاء طفل جعلني ارتجف فاتجهت نحو غرفة ابني توني .. عزيزي توني ..!

كنت قد ذهبت بعيد الظهر عندما كان نائما وها هو الآن جائع . هيأت له وجبة الحليب الساخنة وأخذت أطعمه مستعينة بحركات عفوية لا ارادية فأخلد بين يدي للراحة ثم استسلم لغفوة عميقة فوضعته في سريره بكل هدوء .

آه يا صغيري ..!

انه في نهاية السنة الاولى من عمره ، يفيض صحة وقوة ، يتطلع الى الحياة ببهجة وانطلاق . تحيط خصلات شعره الذهبية بجبهته الصغيرة ، ويفتر ثغره عن ابتسامة ناعمة . ان تشابه الملامح يدهشني .. وتمتمت شفتاي : مارك ، فاستيقظت آلامي كلها دفعة واحدة ، قاسية موجعة ، وأجهشت في البكاء بجانب السرير .

* * *

... كان ذلك منذ ثلاث سنوات ، عندما التقيت بمارك كيبرو في حفلة زفاف احدى الصديقات . وعلى أثر ذلك اللقاء أعجبت بهذا الشاب الاشقر ذي النظرات الضاحكة التي تعبر عن الخبث .. أحببت كلامه الجياش بالبهجة ، وأحببت ثقته في الحياة . كان يعمل رساما للدعاية في احدى كبريات وكالات التجارة ، أما أنا فقد كنت فتاة وحيدة ربتني والدتي تربية محافظة . الا أن حيوية مارك استولت على تفكيري . أذكر أنه قال عني ان مظهري كفتاة حزينة صغيرة وعاقلة قد أعجبه جدا ، ووجه الي بعض عبارات الاطراء ثم رقص معي طيلة تلك السهرة . وبعد عدة أشهر تقدم طالبا يدي .

ومرت الايام في نعيم دائم ، أغدق مارك علي خلالها كل عواطفه وهيأ لي جوا ساحرا وسعادة فياضة ما زالت تذهلني بهجتها .. لقد تخطى جميع المصاعب وسخر من كل شيء وتوصل الى كل ما يصبو اليه في نوع من الاعجاز .

وهكذا تحسن مركزه المالي فاشترينا هذا البيت الصغير في ضاحية المدينة وحصلنا على سيارة صغيرة .. وأخيرا جاء طفلنا توني ليزيد في سعادتنا ..

ولكن .. تغير كل شيء في حياتنا بعد ولادة توني، فلم يعد مارك يأتي الى الغداء في الساعة المعينة ، وفي كل مرة كان يعتذر بأن لديه مشاغل اضافيه .

كان يبدو شارد البال ، أما أنا فكنت أقلق كثيرا على صحته . ثم ابتدأ يتأخر في المجيء ليلا ، وعندما سألته مرة والالم يحز في نفسي عن سبب غيابه أجابني بأنه كان يعمل في مرسم أحد أصدقائه بباريس فقلت له « ولماذا لا تعمل هنا ؟ انك تملك كل المعدات اللازمة ، كما انك تستطيع أن ترسم وأنا بالقرب منك » ولكنه غضب وقال : « انظري الى أي حد وصلت أنانيتك أتريدين أن أبقى بجانبك ، لك وحدك ... انك لا تفكرين الا بنفسك .. انني أريد أن أبدل أسلوب عملي اذ لم أعد أستطيع العمل في مثل هذا الجو الرتيب الذي يبعث الملل في النفس .

وهكذا ابتدأت آلامي تزداد شيئا فشيئا طيلة الايام التي كنت أقضيها وحيدة في البيت كنت أقول في نفسي ان مارك له عشيقة ، ويجب علي أن أتأكد من ذلك ، ولكنني تخوفت أن أعرف « ذلك » . فأمضيت أياما عديدة قبل أن أصل الى قرار ، ثم توجهت الى باريس وتابعته بعد خروجه من مكتبه فعرفت أن « الصديق » الذي أعاره مرسمه كان امرأة .. انها بيللا دارجيس الرسامة المعروفة .

عدت الى البيت خائرة القوى ، وفي المساء خاطبت مارك بخضوع واسترحام : أنا أعرف أن لك عشيقة .. ولكن ... هناك توني طفلنا ... أرجوك أن تقطع علاقتك بها من أجله يامارك » !.

فقال والغضب يظهر في قسمات وجهه : « ان بيللا ليست عشيقتي ، اننا نعمل سوية .. هذا كل ما في الامر أنت لا تعلمين أي شيء عن مهنتي ، انني بحاجة دائمة أن أتبادل الآراء وأن أتحدث الى شخص آخر ... ان بيللا فنانة وأنا بحاجة ماسة اليها ... وعليك أن تدركي ذلك جيدا » .

وكان علي أن أحني رأسي . كنت مستعدة أن أضحي بكل شيء لاحتفظ به . لقد برر موقفه ، فصدقته ، لانني كنت في أمس الحاجة كي أصدق كلامه ولو كان كذبا . ولكنني كنت أشعر مع كل يوم ينقضي انه يبتعد عني بازدياد . ولم أفلح رغم كل الجهود التي بذلتها أن أبقى واثقة به مما جعلني أسافر الى باريس صباح أحد الايام .

انتظرت قرب منزل بيللا ، فرأيتهما يخرجان معا وقد تشابكت أيديهما بعطف وحنان ، كانت بيللا شقراء مرحة ما يزال وقع ضحكتها يرن في أذني . لقد كانت واثقة من جمالها ، في تمام سعادتها . أما أنا فقد الفيت نفسي شديدة النحول في ثوبي الاسود وبشعري المتهدل ووجهي الاصفر الشاحب وعيني الواسعتين الدائمتي الحزن ، فكيف يمكنني أن أجابه تلك المرأة ؟

اتصلت بمارك هاتفيا وأخبرته أنني أنتظره في أحد المقاهي المعروفة .. ودون أن أنظر اليه وبلا مقدمات قلت له انني شاهدته معها فلا حاجة للانكار . تردد برهة ثم أجاب « أجل .. كنت ستعرفين ذلك عاجلا أو آجلا أجل أنا أحب بيللا وعلينا أن نفترق ياماتيلدا .. ولكنني سأوفر لك دائما كل ما تحتاجين اليه أنت والطفل .

* * *

« سأوفر لك كل ما تحتاجين اليه » ان هذه العبارة تضج في ذهني فتكاد تخنقني « ما تحتاجين اليه » ... المال طبعا ... الاطمئنان المادي ... ولكن هو ... هو ... الذي أحتاج اليه .

وشعرت بفراغ هائل يحدق بي .. انه الفراغ الذي خلفه مارك وأنا في أمس الحاجة اليه . وتراءى لي فجأة أن شعاعا كبيرا قد انطفأ في حياتي . أين ابتسامة أيامي الهنيئة ؟ تلك الايام التي تلاشت كالاحلام . ان مارك وحده هو الذي جعلني أحيا ، لذلك فلن أستطيع أن أفعل أي شيء دون ابتسامته ونظراته الدافئة .

اقتربت من سرير الطفل وأنا في حالة يائسة . كان توني يغط في نوم عميق .. كلا ، انني لا أستطيع أن أفعل أي شيء ! كيف سأنشيء هذا الطفل ؟ وأين سأجد القوة الكافية لذلك سأضطر أن أنقل اليه أحزاني وسأبث في نفسه يأسي . انه لن يعرف أبـاه مطلقا . توني ! هذا الطفل الذي طالما انتظره مارك بلهفة .. انه طفله ..

توقفت وأنا أرتجف .. وفتحت النافذة بحركة سريعة . كان الليل قد أرخى سدوله .. وبـدا هادئا يفعم القلب بالرقة والعذوبة وكانت النسائم تحمل أريج الازهار التي فتحتها الامطار الأخيرة . ومن جهة أخرى كان أحد العصافير يطير من غصن لآخر ، وفي أقصى الحديقة يتعالى نقيق الضفادع .. كان الصمت قد خيم على الفيلات المجاورة ، فالجيران ينامون باكرا باستثناء البيت الذي يقع أمامنا اذ ما تزال فيه نافذة مضيئة تبدو كمربع ذهبي في ظلام الليل : ذلك بيت « كريستيان فار » صديق مارك ، الذي يعمل موظفا في البنك . كان يعلم مثلي بعلاقـة مارك ببيلا ، كما أنـه وقف بجانبي مرارا كثيرة . وكان يحاول تشجيعي على مواجهة الواقع برباطة جأش ، كلما التقيت به صدفة .. ولكن لم يكن تشجيعه يجدي معي نفعا .

وهبت نسمة ريح ناعمة تدغدغ وجهي ، فتراءت لي يد مارك البيضاء الناعمة تداعب شعري ... ولكنه في الوقت الحاضر يداعب بيللا ! واستولت على مخيلتي صور واضحة أخذت تتراقص أمام عيني ... انني لا أستطيع أن أحيا تحت وطأة هذا الالم الذي يعصف في قرارة نفسي .. اذن يجب أن انتهي منه بسرعة .. بسرعة هائلة ..

أغلقت النوافذ ، وأسدلت الستائر ثم ذهبت الى المطبخ وفتحت أنبـوب الغاز وعدت الى غرفـة النوم وجلست قرب سرير الطفل ، سرير ابني توني .

واستـولى على مشاعري ارتخـاء ثقيـل .. فقلت في نفسي ، اننا سنرقد .. سنرقد أخيرا ..

* * *

شعرت بالمرارة تتسرب الى حلقي وأخذت أذناي تطنان . أردت أن أتكلم ولكنني لم أتمكن من تحريك شفتي وأخيرا تلفظت « مارك » .

وعلا صوت بالقرب مني قائـلا « انهـا تعود الى رشدها » بذلت أقصى جهدي كي أفتح عيني ، فوجدت نفسي في غرفة بيضاء لا أثاث فيها ، وكان كريستيان فار بجانبي .

حاولت أن أتذكـر شيئا الا أن أفكاري كانت مختلطة ومـع ذلـك فقد بدأت أسترد وعيي شيئا فشيئا : تذكرت نفسي وأنا في المطبخ وحيدة أفتح انبوب الغاز.. ففهمت كل شيء .. هناك من أنقذني ! وها آنذا الآن في المستـشفى .. ولكن طفلـي ؟ وصرخت « توني » محاولة أن أقوم من سريري الا أنني لم أتمكن من ذلك فانكفأت على فراشي .

أمسك كريستيان بيدي وقال لي « اطمئني ، انه بخير .. لقد جئت اليكم في الوقت المناسب .

عندئذ استيقظت كل آلامي لانني لم أمت . فقلت لكريستيان : « لماذا أنقذتنا ، لماذا ؟ فاقترب مني وتطلع الي بعينيه الكبيرتين السوداوين وقد بدا فيهما الشفقة والالم ثم قال « كيف استطعت ياماتيلدا أن تقدمي على انهاء حياتك وحياة هـذا الطفل ؟ هذا الصغير الممتلىء حيوية ونشاطا . مساء أمس كنت أتطلع كثيرا الى نافذة غرفتك المضاءة ، ففكرت بك وبأحزانك . انني أعرف كل شيء .. ولكن ما ان أغلقت النوافذ حتى راودتني بعض الشكوك اذ أنني كنت أخشى دائما وقوع مصيبة لك .. فصعدت الى المنزل وناديتك فلم أتلق أي جواب، خلعت الباب فوجدتك أنت وتوني .. وها أنتما الآن بعيدان عن الخطر . فينبغي عليك ياماتيلدا أن تنسي كل ما مضى وأن تفكري في الحياة ! »

ولكنني لم أكن أسمع شيئا ، وسألت كريستيان « ألم تخبر مارك بما حدث » فتردد قليلا ثم قال : « أجل لقد أخبرته على الفور وسيصل بعد قليل » .

فتسربت الى نفسي آمال جياشة وقلت « ألا تراه ياكريستيان يعود معنا . أنا لا أستطيع أن أحيا دونه . انه ولا شك سيقطع علاقته بتلك المرأة أليس كذلك !؟» .

فحول كريستيان رأسه عني .. ومضت برهة من الصمت ثم اقترب مني وقال : « ما الذي يدعوك لاعادة الماضي ياماتيلدا ألا تستطيعين أن تتشجعي وترسمي لنفسك حياة جديدة ؟ »

فشعرت بالدماء تتجمد في عروقي وأنا أسمع هذه الكلمات فقلت له « ما الذي يدعوك الى مثل هذا الكلام ؟ هل قال لك بأنه لن يعود !؟ » فأجاب كريستيان بهدوء « كلا . انه سيجيء وأنا متأكد من ذلك ولكن لن يتغير أي شيء ، انك لن تجدي معه السعادة حتى ولو عاد معك ، لانك لن تقبلي شفقته ، فأنت تستحقين أكثر من ذلك » .

كان خوفي يتزايد مع كل كلمة يقولها . ان ما أبتغيه هو حب مارك الا أن مارك لا يحبني فكيف يتيسر لي أن أعيده الي ؟ فصرخت في كريستيان بقساوة : « اذهب ، اذهب ودعني وحدي .. »

* * *

انتظرت وقتا طويلا ، ثم طلبت الى احدى الممرضات أن تجلب لي طفلي ، ولكنها أجابتني بأن حالته سيئة ولا تسمح صحته بنقله الى سرير آخر فشعرت بتأنيب مؤلم لانني كنت السبب في آلامه .

قلت في نفسي « الا ان مارك سيجيء فيرى توني ويشعر بالحنان لرؤيته فيعود .. أجل سيعود وسيترك هذه المرأة التي انتزعته منا وسينساها .. سأصبح لطيفة ومحبة ، وستعود حياتنا كما كانت سابقا .. ان كريستيان يهذي ، فكل شيء يمكن اعادته الى حالته الاولى .

وأخيرا .. قرب المساء ، فتح مارك باب غرفتي واتجه نحوي بسرعة وعصبية وقد شحب لونه .. فشعرت بنوع من الحنان الذي لا أدري ما كنهه يداهمني فشددت على يديه والبكاء يخنقني وصرخت قائلة « آه سامحني يا مارك » فضمني بين ذراعيه وقال : اهدئي قليلا .. يجب عليك أن تنسي هذا الحادث » فتعلقت به وأنا ارتجف وقلت له : « أجل سأنسى يامارك وستعود معنا ، مع ابنك ، أليس كذلك ، وسنكون مسرورين » فنظر الي بعينين زائغتين وقال : « أجل .. أجل سأعود » .

كدت أطير من الفرح وقبلت يديه وأكمام بذلته قائلة له : « لقد كنت تحبني دائما يا عزيزي وستحبنا معا أنا وتوني ، أليس كذلك ؟

فأجاب مارك بهدوء وهو يحول رأسه عني : ارتاحي الآن سأجيء غدا مساء لاصحبك مع الطفل الى البيت ، لقد قالت لي الممرضة انك تستطيعين الذهاب » .

تهاويت على المخدة برأسي الموجع ، وشعرت بنوع من السعادة المتعبة ، ودون أن أتكلم شددت على يدي زوجي وحولت له وجهي فوضع شفتيه على جبهتي ، فشعرت انه يرتجف .

* * *

ما ان استيقظت صباح هذا اليوم الرائع حتى حملت الي الممرضة طفلي توني . كان ما يزال شاحبا ولكنه بدأ يزقزق كالعصافير زقزقة كنت أفهم معناها ، فداعبته وقتا طويلا ولما استسلم للنوم انصرفت الى الاعتناء بهندامي . فطلبت الى احدى الحاجبات أن تشتري لي بعض مستحضرات التجميل التي لم أكن قد استعملتها مطلقا . ثم أنبت نفسي لتأخري في الاعتناء بأناقتي وهذا خطأ كبير دون شك ، اذ أن عدم اهتمامي بنفسي هو الذي دفع مارك الى البحث عن تلك المرأة ، ولكن سيتغير كل شيء .. ومن الآن فصاعدا سأصبح أنيقة له ، لطفلنا توني ، كي نصبح سعداء كلنا . وفجأة ترامى الي ضجة جعلتني أصيخ السمع . هناك من يتحدث في الممر .. عرفت انه صوت رجل .. ألعله مارك ؟ فازدادت سرعة نبضات قلبي .. ولكن لماذا لم يدخل ! عندئذ لا أدري

أية غريزة دفعتني للانصات قرب الباب .. يبدو لي أن كريستيان هو الذي يتكلم .

سمعت أحد الرجال يقول « سيكون ذلك مروعا بالنسبة لها وهي في هذه الحالة من الضعف ولا أدري كيف أخبرها .. » وسمعت احدى الممرضات تقول يجب أن لا يقال لها ان الحادثة قد وقعت على الطريق وبأن زوجها قد قتل مع بيللا دارجيس وهما مسافران . »

لم يعلق في ذهني الا كلمة «قتل» ولكنني لم أتمكن من معرفة معناها ففتحت الباب ، فاندفع كريستيان نحوي فاستندت على كتفه وقلت له وأنا أنظر الى وجهه الممتقع الشاحب : « ما الذي كنتم تقولونه !؟ » .

أوصلني كريستيان الى سريري وقال لي بصوت متقطع « أجل ان مارك قد قتل هذا المساء ! لقد انقلبت به عربته أثناء اصطدامها بشجرة كبيرة .. »

عندئذ تمثل في ذاكرتي معنى الجملة التي لم أفهم معناها باديء الامر : « قتل مع بيللا دارجيس وهما مسافران » فرددتها عدة مرات بصوت عال كي أفهمها ، ثم صرخت في وجه كريستيان قائلة « ان ذلك ليس صحيحا .. اليس كذلك .. انه سيأتي هذا المساء كي يعيدني مع طفلي الى البيت .. أجل سيعود معي .. لقد وعدني بذلك » .

ولم تعد قواي تحتمل الصدمة ، فانفجرت بالبكاء وقد بدا لي كل شيء واضحا . لقد كذب مارك بدناءة كي يخفف من آلامي . وعدني أن يرجع ولكنه كان يعلم جيدا انه لن يعود مطلقا . لقد دفع نفقات المستشفى وهرب مع عشيقته في نفس المساء الذي كان سيرجع فيه الى البيت حتى لا يستمع الى توسلاتي بالبقاء .

وبكل خجل أخرج كريستيان من جيبه رسالة أرسلها زوجي وقال « لقد وجدت هذه الرسالة لك في صندوق البريد الذي يخصك » ..

وهل كنت بحاجة أن أقرأ ما كتب « لا تحاولي أن تبحثي عني .. انني لن أتركك كما وعدتك ولكنني لا أستطيع أن أفارق بيللا » .

فتمتمت بمرارة « أجل لن يفترقا أبدا » . الا ان بكائي وضجة الاصوات قد ايقظا توني فأخذ يصرخ وهو في سريره الصغير ، فاندفعت نحوه الا ان كريستيان كان قد حمله بين ذراعيه وهو يبتسم له بينما كان توني يمد ذراعيه نحوي ..

عندئذ أحاط كريستيان كتفي بحركة أخوية وقال: « انظري الى هذا الطفل يجب أن تعيشي لاجله ياماتيلدا .. وأنا سأساعدك ، وسترين أن تربيته سهلة بالنسبة لنا نحن الاثنين ..

لم أتمكن من الاجابة ، وقد هزتني عاطفته الصادقة وشعرت فجأة بالارتياح اليه ، وقبل أن أجد الوقت الكافي كي أشكره على حسن صنيعه أمسك توني بشعره وهو يناديه « بابا .. بابا » .

المطالعة وتربية النفس

بقلم : محي الدين صبحي

ماذا تقرأ ؟ ذلك سؤال ملح يوجهه الجميع الى محترفي القراءة ومدمني المطالعة ، يوجهونه حبا منهم في توفير وقتهم وعدم انفاقه في التجارب العديدة في انتقاء الكتب ، تلك التجارب التي تقتضيهم كثيرا من الوقت والمال .. والاعصاب أيضا ..

ان القارىء يحتاج الى كتاب يوفر له المتعة والفائدة في وقت قليل .. وهذا يقودنا الى سؤال يجب ان يسبقه من الوجهة النظرية ، وان كان ترتيبه من الناحية العملية يأتي متأخرا بعض الشيء . هذا السؤال هو : لماذا نقرأ ؟ قد تكون الغاية واضحة في الحياة الدراسية . وهي القراءة من أجل النجاح في الامتحان أو في مسابقة ، ولكن الانسان الذي يقرأ دون حاجة مباشرة الى القراءة قلما يطرح على نفسه هذا السؤال فاذا صدف وسألته أجابك : انني أقرأ للمتعة أو لتزجية الوقت ، وفي الغالب لا يكون هذا القارىء مخلصا في قراءته أو في اجابته . فان كان غير مخلص للقراءة انشغل بحل مسابقات الاحاجي في الجرائد والمجلات ، وان كان غير مخلص في اجابته كان قارئا هادفا . ان للقراءة هدفا يحدده مستوى القارىء وهوايته ومجتمعه ، وهو هدف عام لانه غير اختصاصي وعمومية هذا الهدف تسبب غموضه في نفوس معظم الناس .. واسمحوا لي أن أحتفظ قليلا بالهدف من المطالعة لنبحث طريقة الوصول الى هذا الهدف . وتحدد طريقه الوصول بهذا السؤال : كيف نقرأ ؟ والجواب الاكيد الخطأ في هذا المضمار هو القراءة التي تعتمد على التكرار والحفظ وكذلك القراءة التي تنتقي من الكتاب بعض العناصر في أوله وآخره ومنتصفه ، وهي قراءة التصفح . وما سوى ذلك من أنواع القراءة فانه يخضع لموضوع الكتاب وأسلوبه ولشخصية القارىء وتجاربه السابقة في هذا المضمار .

يسمى عصرنا الذي نعيش فيه عصر القياس . فقد اقحم الرقم نفسه في الحجوم والمساحات والاوزان والذبذبات ، وقد اهتم علماء التغذية بمعرفة احتياجات جسم الطفل لمختلف النسب الكلسية والحديدية والحيوية ، وبدأوا يغذون بعض الاطفال بحسب هذه النسب ، لكنهم تساءلوا : كيف استطاع الانسان القديم أن يحافظ على صحة أطفاله وأن يغذيهم بالغذاء المناسب؟ ولكي يكتشفوا الجواب وضعوا أمام الاطفال مختلف أنواع الاطعمة وتركوا لهم حريتهم في أن ينتقوا ما يشاؤون ويأكلوا الكمية التي يريدونها . ولشد ما فوجئوا حين رأوا صحة الاطفال تتحسن وأن كل طفل يقبل على الطعام الذي يلائمه ويتناول من الغذاء الصنف الذي ينقصه ، فاذا نقصه الكلس أكل البندورة والبيض واذا كان مصابا بفقر الدم اختار الكبد واللحوم .. فالطبيعة اذن تحافظ على الحياة وتهدي المخلوق الى الطريق الصحيح اذا اتبع فطرته وحافظ على ميوله من التطرف والشذوذ .

اعتقد ان الحل الذي وضعته الطبيعة لاطراد النمو الجسماني يصلح تمام الصلاحية للتطبيق في مجال البحث النفسي عن طريقة تنمية الملكات والاهتداء الى الميول والاستعدادات الكامنة في كل نفس بشرية .. وكما عمل علماء التغذية على توفير أنواع الطعوم للاطفال ، كذلك علينا أن نهيء المكتبات التي تحوي كل أصناف العلوم والآداب لتتيح للنفوس مجالا حيويا تنطلق فيه باحثة عن نفسها حتى تجدها .

ماذا نقرأ ؟ لنقرأ ، في البداية ، كل شيء . ولنلتهم بشغف مشبوب كل ما يقع بين أيدينا من أصناف المطالعة في علم النفس أو الكهرباء والروايات والبيولوجيا وتاريخ

الحضارات وطرق منع الحمل ودواوين الشعر وعلم طبقات الارض والمذاهب والفلسفة مع طرق المصارعة اليابانية وتراجم العباقرة مع كتب تعليم السنسكريتية بلا معلم والهندسة المعمارية مع مضار العادة السرية وكتب المنطق مع كتب فن الطبخ والتمارين السويدية ومذكرات الكلبة لايكا عبر الفضاء الى آخر مصنفات العلوم والفنون التي يزخر بها عصرنا العظيم وارث خمسة آلاف عام من الحضارة الانسانية . ان عصرنا قد أمم العلم والفن حين اخترع السينما والمطبعة .. لم يعد هناك سر يحتفظ به الكهنة في اهرامهم وأديرتهم أو العلماء في مصانعهم ومختبراتهم ، وحتى علوم الذرة والصواريخ سوف تصير مشاعا بين الامم ان لم تكن قد أصبحت كذلك بالفعل .. ان عصرنا قدم كل ذلك للانسان وعلينا أن نكون جديرين بهذا العصر . وقديما عرف الجاحظ الادب بأنه الاخذ من كل شيء بطرف ، وبعد الف عام من الجاحظ عرف (رسل) الثقافة بأنها معرفة شيء عن كل شيء وان الاختصاص معرفة كل شيء عن شيء واحد .. وهكذا نرى أن الانسان ملزم في كل عصر بمعرفة الطبيعة حوله والماضي قبله ، لا لكي يصبح مكتبة متحركة تردد آراء الآخرين وأقوالهم . ولا لكي يكسب بين الناس لقب مثقف أو يزيد دخله الشهري أو يحصل على وجاهة اجتماعية تتيح له الفرص للتعرف على الجنس الآخر فهذه أمور تحصل مع المثقفين لكنها نتائج ثانوية ولا تصلح لان تكون هدفا الا لصغار النفوس ، فالهدف الاصلي للمطالعة عند انسان يحترم نفسه هو أن يكتشف نفسه أولا وأن يزيد من نمو شخصيته ثانيا .

حين بدأ اليونان تشييد حضارتهم عبروا عن ذوقهم الجميل بأنشاء معبد دلفي ، وكان يقدر لهذا المعبد أن يظل بناء جميلا تزداد قيمته بتقادم تاريخه حتى يصبح كعبة للعجائز من عوانس أمريكا وأصحاب الملايين فيها ، لولا أن مهندس المعبد أوسادنه قد كتب على بابه جملة بسيطة مختصرة هي : ــ اعرف نفسك ومنذ ذلك الحين ابى الآن لم يعرف تاريخ البشرية عبقريا واحدا لم يبدأ دربه من هذه الحكمة ، بل يخيل الي أن هذه الحكمة تسلسلت في مختلف الفلسفات حتى وصلت الى الفلسفة الوجودية اذ كيف تختار نوع وجودك ان لم تكن شديد المعرفة بنفسك ؟. فاذا بحثنا في طرق معرفة النفس وجدنا لها طريقين : طريق الاتصال بالنفس ومراجعة تجاربها وطريق الاتصال بالآخرين ومعرفة تجاربهم وكلتا الطريقتين تتحتم احداهما الاخرى فلا تستطيع أن تفهم نفسك الا عن طريق الآخرين والعالم الخارجي ولن تستطيع أن تفهم الآخرين والعالم الخارجي الا عن طريق نفسك .

ان المعرفة قوة ، هكذا يقرر مثل روماني قديم ، فقوتنا تزداد مع ازدياد معارفنا ، ولما كانت المعرفة لا تغني الا عن طريق التجارب فان على الانسان أن يقذف بنفسه في البحر الواسع لهذه الحياة متعرضا لكل تياراتها ، مصارعا لكل مشقاتها ، متحملا لطمة موجاتها.. حتى اذا عاد الى الشاطىء بعد طول تطواف وجد في يديه كنزا من اللآلىء التي اكتسبها في كل تجربة خاضها .. لكن الانسان طموح طماع لا يشبع ولا يقنع ومع ذلك فان حياته محدودة ووقته قصير مليء بمختلف التفاهات التي يفرضها المجتمع على الفرد .. والانسان أسير بين عملاقين متخاصمين يشده كل منهما الى طرف يعاكس الطرف الآخر ، انه في مأزق بين الحياة القصيرة والوقت القليل والجهد المحدود وبين الطموح الى معرفة كل شيء والاطلاع على الحياة جملة وتفصيلا .. فماذا يعمل ؟ من هنا نستطيع أن نكتشف عظمة النوع البشري . ان جبروت الانسان وتقدمه ورقيه رهن بقدرته على تخزين التجارب والاستفادة من تجارب الآخرين . كل جيل يتلقى تجارب الاجداد ويضيف عليها ثم يقدمها الى الابناء والاحفاد فيمضي هؤلاء من منتصف الطريق بدلا عن أن يبدأوا من أوله .. فالانسان الذي اكتشف الحديد لم يترك ابنه جاهلا بهذا الاكتشاف بل علمه اياه وبذلك ترك له الفرصة لاكتشاف معدن آخر .. وحين تكاثرت الاكتشافات وفاضت عن

مقدرة الذاكرة اخترع الانسان الكتابة وسجل خبراته التي اقتضته دهورا وجهودا سجلها في سطور قليلة يقرؤها الاطفال والشبان بسهولة ومتعة .. فالهدف من القراءة اذن هو فهم تجاربنا وتعميقها ، وهو أيضا الحصول على تجارب جديدة والاطلاع على تجارب الآخرين اطلاعا نظريا يزود معرفتنا العملية بالمخططات الزائدة عن الحد الادنى فتنمو شخصيتنا وتغنى . فليس التاريخ فقط معرضا لتجارب الانسان . ان في كل ما كتبه الناس عرضا لتجاربهم في هذه الحياة . وما أجمل الساعات المتأخرة من الليل حين يختلط الوعي الشديد بشيء من الدوار وتنتصب شخصيات دوستويفسكي تتحاور : « اذا كان الله غير موجود فكل شيء مباح ولا لزوم للاخلاق » وينهض غريب كامو وهو يواجه القتل والضلال والجنس والموت فلا يؤكد الا شيئا واحدا ، هو رغبته في أن يظل حيا . ويتقدم الينا همنغواي بكل رجولته المخضبة بالدم والاصرار ليعلن في الشيخ والبحر : « الفائز لا ينال شيئا » .

في مثل هذه اللحظات يتوهج الشعور ويلامس الانسان عالم الخلق والابداع .. فاذا كنا نقرأ أندريه جيد ووصلنا الى قوله : « فياقارئي الحبيب ، اذا أعجبت بقصتي هذه فارم الكتاب وانطلق خارج غرفتك لترى الحياة » .. عندها تشعر بأن الحياة تستحق أن تعاش رغم ما فيها من تفاهات .

ان هدف القراءة هو اغناء الحياة وتوسيع نظرتنا اليها وتعميق فهمنا لحوادثها لكن الحياة نسبية ، انها تفرض المطلق في صميمها .. لذلك فالغنى والزخم أمران نسبيان وعلى كل أن يختار الزخم الذي يناسبه فتتخذ مطالعته الوجهة التي يميل اليها بعقله وعاطفته .. ان المطالعة تضخم الشعور وترهف التفكير وتعين الانسان على فهم نفسه واكتشاف النواحي القابلة للنمو في شخصيته وبذلك يتحدد اختياره ويتعين مساره .

لقد نظرنا الى المطالعة حتى الآن نظرة انفعالية . قبلنا النظرة العامية التي ترى في المطالع شخصا مستريحا يتعرض لانفعالات لا تتيحها له الحياة العادية ولكن لا بد للانسان من أن يجتاز هذه المرحلة ، اذا ثابر على القراءة ، ويصل الى مرحلة الوعي الفعال ، وأول درجات الفاعلية هو انتقاء اتجاه معين ونوع معين يفضله على غيره من بقية الانواع ، كأن يبدأ بجمع المعلومات عن شاعر معين فيعرف تفصيلات حياته ويلم بعصره ويفهم طريقة نظمه ويتذوق أحاسيسه وتعبيراته وسرعان ما يكتشف أنه أصبح أكثر من غيره علما بهذا الموضوع ، وأن بأمكانه أن يقرأ قراءة واعية ، شريكه فيها قلم بيده يعينه على التأشير على النواحي الهامة وانتقاء الابيات الجيدة التي تدوم في ذاكرته وتدفعه الى تقليدها أو شرحها أو نقد مواطن الركاكة فيها . وهنا نصل الى جواب السؤال الثاني : كيف نقرأ ؟ .

انها هنيهات جميلة تلك التي نسترخي أثناءها في سررنا والمدفأة ترد عويل الرياح والراديو بجانبنا يحملنا على جناح النغم .. ونحن نقرأ .. نزعم أننا نقرأ . فاذا أردنا الصدق لنقل اننا نتسلى ، نجلب لنفوسنا النوم والاحلام .. والقارىء الذي تخطى مرحلة التسلية وتخطى حب الانسان للخدر ، ليحشد كل مواهبه ووعيه ليتلقى الاثر الفني ويستوعبه .

ان ثمة صراعا غير منظور بعين الكاتب والقارىء الواعي . والكاتب الفاشل هو الذي لا يستطيع أن يسيطر على قارئه الى النهاية . وكلنا رمينا قصصا كنا نقرؤها ، حين استطعنا أن نتنبأ بنهايتها ، ومع ذلك فان على القارىء أن يقاوم الكاتب ويكتشف أحابيله عن طريق الانتباه الشديد والمراجعة والتحليل وسعة الاطلاع وبهذا وحده تتحول المطالعة الى عمل فاعل ويرتفع القارىء الى مستوى الخلق والابداع ، اذا تفاعل تماما مع ما يقرأه .. والتفاعل شرط أساسي لا معنى للقراءة بدونه .. يجب أن تستغرق شخصية الانسان في الكتاب الذي بين يديه .. على القارىء أن يجلس منتبها متفتح الحواس مستعدا للتلقي ، شأن التلميذ بين يدي المعلم يجله ويحترمه . ان المطالعة ليست لاستفادة معلومات ،

بقدر ما هي تربية للنفس • والقارىء الذي يلتهم الكتب ليتعرف الى تجارب الآخرين ويكيف نفسه مع هذه التجارب • القارىء الذي يقرأ ليربي نفسه هو القارىء الذي يتفاعل مع مطالعاته فيغرقها في شخصيته ويغرق شخصيته بها • انه يقيس ما مر معه من حوادث بما قرأ ويعدل سلوكه حسب المبادىء التي اكتسبها من مطالعاته وتبناها فكره • أما القارىء الذي يعزل شخصيته عن مطالعاته فانه يبقى حيث كان ، وقد يتأخر انسانيا حين يركبه الغرور بما حصل من عالم • ومن هنا قد تجمعنا الحياة بأشخاص تشهد درجاتهم العلمية بتفوقهم لكن سلوكهم يبرهن على أنهم جهال بالروح ، ومن هذه الفئة تنبع كل مساوىء الانتهازية والجشع وخسة النفس والدناءة ، من هنا يأتي المتعلمون بلا ضمير • ان الثقافة سلاح خطر ، فاذا وصلت الى يد دعي ولم تكيف روحه بمثلها التي تجمع بين الحق والجمال والخير ، فان مثل هذا المثقف يصبح نكبة على مجتمعه وأبناء قومه •• ولكم فاض قلبي بالاحترام والتقديس لانسان عظيم مثل أندريه جيد ، فلقد كانت مذكراته ملأى بملاحظات يدرجها تحت عنوان « قواعد السلوك » وهو دائم التجديد لها بين حين وآخر •• ان الانسان كل متكامل ، فاذا تطور تطور جملة • أما الذين يملؤون عقولهم ويهملون أخلاقهم فانهم في الدرك الاسفل بين الناس •• ومن هذه النقطة ينبع استغرابنا لسلوك الفنانين فننظر اليه على أنه شذوذ ، وما الفنان الحقيقي الا انسان آمن بأخلاق معينة وكيف سلوكه بشكل ينسجم مع مبادئه • ان الفن هو الوحدة والتناسق وهو الكيان الوحيد الذي يجابه الحياة ويتحدى فوضويتها وتشتتها • ان الحياة عبث غير مفهوم أما الفن فانسجام وتكامل ، والفن بمعناه الواسع والشامل اذا دخل حياة انسان ملأها انسجاما وتكاملا مع قيم معينة ، يتبناها كل مثقف بحسب انتقائه وقناعته •• ان الانتقال من الفن الى الحياة يتم بدورة طويلة ومعقدة ، لكننا هنا نقبل نظرية أندريه والروحين يقرر في كتابه « أصداء السكون » أن الفنان الناشىء يقلد الاعمال الفنية أولا ثم يلتفت الى الطبيعة والحياة ، وفي اعتقادنا أيضا أن القارىء شبيه بالفنان في تدرجه ، حيث يبدأ بفهم الاعمال الفنية وبعدها ينتقل الى فهم الحياة • ان القارىء يعيد تكوين نفسه أثناء المطالعة لان تأثير الفن يكمن في ناحيتين هما : التطهير والايحاء •• فالتطهير يتم باشباع الرغبات المكبوتة التي ينكرها المجتمع ، فمشاهدة أفلام العنف والاجرام مثلا تروي في الانسان السوي رغبة المشاكسة والقتل ، أما الايحاء فيظهر على شكل تضخيم وتجسيم وتجميل وتوضيح للافكار والرغبات التي نتردد في تنفيذها • ان الفنان هو الساحر الذي يرينا الحياة كما يريد هو أن نراها ، ويؤكد الرغبات التي يعتقد أنها أساسية في الحياة ، ويطرح القيم التي يتمنى لها أن تسود في المجتمع ، ومن هنا قد تندلع ثورة بتأثير قصيدة تتحدث عن الحرية • والايحاء والتطهير في الفن هما اللذان يؤثران في تربية القارىء ويغيران في حوافز ودوافع سلوكه وغاياته وبسبب التأثير العظيم الذي تحدثه المطالعة في نفس القارىء يتوجب عليه أن يكون واعيا حذرا كثير المناقشة لما يدخل الى نفسه من آراء ونظريات قد تتضارب فيوفق بينها بعقله المستنير الحر • وحرية العقل هي عدم خضوعه لاي مذهب أو نظرية ، والذين يسجنون عقولهم ضمن نظريات حددها لهم غيرهم ، انما هم أشخاص لا يكتسبون كثيرا مما يقرأون لانهم لا يفهمون الا ما يريدون أن يفهموه ، والذي يريدونه حجج وبراهين تؤيد موقفهم الجامد •• ان المطالعة حرية ونمو وتجربة ، فلنفتح قلوبنا وعقولنا لرياح الآخرين كي تنشطنا دون أن نسمح لها باقتلاعنا من جذورنا •



العندليب الأسمر

قصة بقلم : ليلى اليافي

كل جارحة من نازك كانت تبدو وكأن الاشراق صهرها من أنفاسه . عيناها السوداوتان اللامعتان ببريق اخاذ . وشفتاها اللتان تحرجهما ابتسامة لا تغيب . حتى جسدها الممتلىء القصير كانت تكسوه طبقة لامعة هي كلون البن المحروق . ولكن كان هناك شيء فيها مظلما .. كمجاهل الابدية . انه قلبها الغارق في سواد أطفأت مصابحه الاعاصير .. اذا تلك الانثى تجمع شيئا مشتركا ولكنه متناقض تماما في جوهره . وأول ما عرفتها صدمني منها استبشارها غير الطبيعي . لقد رأيتها وكأنها تملك الدنيا بكل ما فيها .. مفرطة في الثقة وفي الابتسام . وفي التحرر الذي لا تعبده مجتمعات دمشق . فجلست أحصي عليها حركاتها منكمشة وهالتني قهقهاتها الصاخبة في ذلك الجمع الذي يحوي أفرادا من الجنسين . ولمحت مرارا ساقها المليئة المصطبغة بذلك اللون البرونزي الداكن عندما انحسر ثوبها القصير ..

انها قطعا لم تكن جميلة فهي قصيرة القامة لونها أقرب الى السواد وفضلا عن هذا كانت عريضة الاكتاف والوسط والاطراف . وكونت عنها فكرة سيئة جعلتني اتحاشى النظر اليها . ولا أدري كيف أمسك أحدهم بالعود واقترح على نازك أن تغني ! لاسمع بعد حين صوتا أقسم بأنه لرخامته كان كأصوات بلابل الجنة . وتعلقت أبصاري بنازك .. عجبا لقد اكتست ملامحها بنورانية مذهلة ، فذلك الوجه الذي كان منذ لحظات لا يعبر عن فكرة بذاتها الا الفراغ واللهو تبدلت سيماؤه وتلون بتعابير تمس القلب .

وشقت كلاً من خديها قناة عنبر تلألأت فوقها دموع تجمعت فوق ذقنها وعاد قلبي مشفقا عليها .. ووددت لو خلا المكان الا منا لاسندها الى كتفي فتفرغ كل تلك الانات بين يدي كائنة ذواقة للالم . ولكن لم يكن هذا هينا .

وران الصمت على الحضور كلهم وعندما كفت عن الشدو خيل الي بأنها قد مستهم جميعا بسحر طبيعي على قسماتهم فزيدا من الرقة والاحساس حتى بعد أن عادت تضحك وتثرثر لم أعد أشهدها في تظرتي الاولى بل رأيتها مجرد روح حلوة تردد صدى الاحساس في كل لفتاتها وشاءت الظروف أن يكون مجلسها بجانبي في عربتنا التي أقلتنا من ذلك المنزل القابع في ضاحية قريبة الى دمشق .

وهفهفت نسمات أوحت الي بمزيد من الجرأة جعلتني أبتدرها بعد أن أخذت العربة تسير ببطء بين جانبين من الخضرة والجبال .

يا لروعة شدوك يا آنسة نازك انني سأقول لك بصراحة لقد عرفتك كما انت بعد ان ملأت أعماقي بسحر غامض .. وقبلها كنت اتحاشى النظر اليك منذ الوهلة الاولى .. ولا أعلم لم تناقض أثرك في نفسي بين برهة وأخرى أرجو أن تعذريني فقد يكون في قولي بعض الخشونة ولكن لم أقل يوما الا ما أشعر به .

وصدرت عنها ضحكة عذبة وانفرجت شفتاها عن أسنان ناصعة البياض وبانت في عينيها براءة الاطفال وهي تقول : أحب لي أن أعرف شعور الآخرين نحوي .. من أفواههم عوضا عن نظراتهم التي أفهمها فتجرحني مواربتهم .

أشكرك على ثناك وأعلمي بأنني قد أحببت فيك تلك الصراحة التي تجعلني أحس بأنه قد يكون بيننا ود ومحبة .

واستدركتها قائلة : أتمنى أن تتوثق بيننا صداقة

عميقة ولكن الـم تلحظي انكماشـا على نفسي وذلـك الجهد الـذي يتملكني في كل آونـة • خجلا أو حزنا مهما لا أدري !•• بينما أنت مقبلة على الدنيا اجتماعية وأظن بـأن بسـمتك عنوان شـخصيتك أينما ذهبت • وكأنني نبشت لهـا جروحـا بقولي فقـد تبدلت معالمها واتخـذت سـمة الالـم المفرط • بينما اتجهت عيناها المنفعلتان نحو سرب طيور كان يعبر شـلال ماء فـوق صخرة تشرف على بردى وقالت لي :

رويدك يا صديقتي حقـا أنـا أعبث واضحك • ولكن هل تحسبين بأن هذا ينبع من نفس •• كلا والف كلا الم يبلغك من الشعر القديم قـول الشاعر : الطير يرقص مذبوحا من الالـم) (واذا رأيت نيـوب الليث بـارزة •• فـلا تظنن أن الليث يبتسـم) • ان هـذا ينطبق علي تماما •

وعادت الى اشراقها تقول : لقد اتفقنا ان صداقتنا تقوم على تقارب تـام • أنت بذلك الحزن الذي يغمر وجهك •• وأنا بالالم الذي يقطع بدبيبه أجوائي • ثم أمسكت بيدها التي امتدت تصافحني بعزم •

وانقطع سيل الحديث حتى بلغنا منزلها المتواضع في أحد أحياء شارع بغداد وعنـدما ترجلت أفاضت في الشكر ثم اتجهت الي وقالت : سأزورك عصر الغد •• فان لدي حديثا طويلا سأقوله لك •• وتبادلنا الابتسام ثم انطبعت صورتها في خاطري وهي تحييني بلوعة • وحتى عـدت الى المنزل وتوسـدت فراشي •• استأثر خيالها بنفسي وكأنني المحها تذكرني بموعد الغد •

وفي تمام الساعة الثالثة بعد الظهر لمحتها تأتي من أول الشارع الصغير وهي تقطع الطريق بخطوات سريعة متوثبة •• ولوحت بيدها عندما رأتني في الشرفة فأجبت ترحيبها ثم انثنيت الى الداخل لاقطع درجات السلم وعلى الباب الخارجي التقينا فعانقتني بود طبيعي •• ثم ارتقينا السلم معا •

وعندما دخلنا الصالون جلست على أحـد المقاعد فبدت لي بثوبهـا الابيض المطبوع بورود حمراء كبيرة الذي كان يلف جسدها الأسمر وكأنهـا زهرة بنفسج مـا زال الندى يعطر فروعهـا •• واستغرقتنا عبارات الترحيب المألوفة •• وعندما قدمت القهوة لها بعد قليل • أمسكت بالفنجان وتفرست فيه قليلا ثم اطلقت ضحكة قصيرة وقالت : هل تعلمين بأنه يربط بيني وبين القهوة حب كبير لمجرد التشابه في اللون • وسرتني دعابتهـا فقلت لها : ولهـذا تكون القهوة لذيذة كلما تعمقنا في شربها فخلف طبقتها الخارجية تكمن أشياء يكفي منها انها تريح الذهن والقلب • وحنت نازك رأسها شاكرة لي مجاملتي الصادقة • فقد كانت من النوع الذي تأسره كلمة بسيطة طالما كانت صادرة من الاعماق •

وانتهت من شرب القهوة فقلبت الفنجان فوق طبقه وهزته قليلا ثم نظرت فيه وقالت : لقد جف هل تكشفين لي عن طالعي • ونفيت هذا برغم ان هذه الهواية تشغف ثلث سيدات دمشق على الاقل •• ووضعت نازك الفنجان جانبا وقالت : حسنا اذا أنا التي سأتكلم وأصف لك عني الزوبعة التي تعيش في الفنجان الكبير • وقرنت هذا بأن أشارت في شتى الاتجاهات وكأنها تجسم لي الكون بين يديها واشرأب عنقي وأنا أنظر لها مترقبة منها أن تبدأ الحديث • وأخذت تعتصر بين أناملها لفافـة أشـعلتها لتوها بينما أخذ جفناها يهتزان وقد سرحت بعيدا •• ثم حولت أنظارها الي فجأة وحدجتني بنظرة جانبية عميقة وقد ظهرت أسنانها وهي تبتسم في ألم ساخر وقالت : أنا أفضل وصف الاشياء باسمائها ولهذا لن أزوق حديثي •

ما زلت أذكر طفولتي الاولى البعيدة حيث كان أول ما وعيته منزلا أنيقا يجمعني مع أم وأب كانا هما كل شيء في حياتي • ولكن الشيء الذي كان يثير فضولي هو اختلاف واضح بين الكائنين الذين أحبهما • فقد كان ابي وسيما أبيض اللون • بينما أمي لها نفس اللون الذي اكتسبته أنا • وكان هذا مصدر تساؤل وحيرة بالنسبة لطفلة تحيرها مظاهر عنصرين •• ولكن ما كنت القاه من رعايتهما انساني وقتئذ كل هواجسي •• وكانت حياتنا مرفهة فوالدي ضابط موفق في عمله •• ووالدتي كانت

تعمل طبيبة في موطنها قبل ان تقطن دمشق مسقط رأس والدي .. وقد كنا نعيش في تلك السعادة لولا حادث بسيط غير مجراها تماما .. فقد تغيب والدي عن منزلنا كعادته عندما يقوم بواجبه .. بين فترات متقطعة . وفي غيبته كان يتفقد شؤوننا أخ له .. وعلمت عندما كبرت بأن العائلة لم تكن ترغب في أمي زوجة لابنهم . ولهذا تعلل عمي هذا بتصرف بسيط من والدتي .. فانهال على ضربا ولكما . ولم تفه أمي بكلمة أو تنقذني من جنونه .. ولكن عندما عـاد زوجهـا من مهمته .. ثابرت في .. ولكن عندما عـاد زوجهـا من مهمته .. ثارت في وأهله وبينها . واختار هوان يطلقها .. وهكذا خرجت من حياتي الى الابد ولم أرها منذ ذلك الحين ولا أظن بأنني ساشـهدها .. ومنـذ تلك اللحظـة عشت حياة مضطربة .. أقضي يوما عند هذه العمة وأخر عند احدى قريبات العائلة .. ولكن أي دقائق كنت أعيشها . لقد كنت مسخرة لخدمـة القريبات . خادمة صغيرة . أو مؤنسة بربريـة الشكل تعيش على الفتات . بينما كان والدي متمتعا بحياة أخرى مع زوجة جديدة .

وكان هو لا يبخل حقا في منح من تتناقلني منازلهن لايوائي . ولكن لم تبلغني نقوده بأي وسيلة . وعندما كبرت تفتحت عيناي على عزة كانت تضطرم في سويدائي أنا لست بجارية .. انني انسانة يجب أن أثبت وجودي .. وأشهر سلاحي في جبهة الذل والجهل . وهكذا جاهدت وكافحت حتى أتيح لي أن أتعلم .. وداهنت الذين حاولوا محاربتي حتى في الحق الذي يمنح لاتفه الناس .

وكم سمعت أذناي عبارات الحقد والغيرة لمجرد تفوقي في العلم . وانتصر شعاع الله في قلبي على كل العقبات وعلى لوني الذي كان يقف كثيرا من الاحيان حجر عثرة . وتخرجت أخيرا مدرسة من دار المعلمات .. لاغرس في القلوب والعقول الصغيرة . المعرفة والمحبة .. وعدم التفريق بين أي جنس ومذهب .. ما دمنا كلنا أبناء أمة كريمة واحدة .. يجمع شملها الله في ظل الاخوة والسلام .. والمحبة .. وتوقفت نازك عن حديثها وقد اتمته وكان بريق عينيها يطغى عليه غبش الدموع .. بينما كنت أنا أكاد أغرق في عبرات أحرقت أجفاني .

وعندما افترقنا ذلك اليوم كنت أحس بأن نازك تربعت في ركن كبير من سويدائي .

ومضت أيام التقيت أثناءها بنازك . وكنا نجلس معا نكشف عن خبيئتنا فتجد بي خـير من يبادلها عواطفها وأشجانها وأجد أنا بها الروح التي القى في كل يوم بين ثناياها كنوزا من المشاعر التي تترك خيرها في الانسانية تتكشف لي .

ولكن باعدت بنا الايام على حين غرة ولم أعـد القاها ..

الى أن ذهبت يوما في زيارة لاحدى صديقاتي . وكانت ابنة ضابط . فوجدتها طريحة فراشها في المستشفى العسكري ..وبعد أن جلست قليلا أخـذت صديقتي تثرثر فرحة بنفسها وقد عادت للحياة . وتذكر لي كثيرا من الحوادث والاخبار الى أن سمعت صرخة يتجلى فيها الالم واضحا وكانت تنبعث من الغرفة المجاورة لغرفـة صديقتي .. وتملكني الاشـفاق فاستـدرت لصديقتي استوضحها وقالت لي وهي تتنهد : ان صاحبة هذه الانة لها قصة رائعة واستدرت عبارتها فضولي . فاستوضحتها وقالت : هي انثى عجيبة ذات لون أسود وتعمل مدرسة وكانت تجود بكل دخلها لخدمـة المعوزين والاطفـال المشردين .. ثم قامت بشيء لا يخطر على بال . وقلت لها وقد أخذ قلبي يطرق جنباتي بعنف . قولي بربك ماذا ؟ .. فاسترسلت : انها تتمتع بصوت ساحر غريب . ولهذا استغلت قرب مدرسـتها من مواقـع الجنود على الحدود هناك فوق مشارف فلسطين . فكانت تتسلل في الليل تشدو لهم وترفه عنهم وحشتهم .. وهم لا يدرون شيئا عن صاحبة الصوت العذب المجهولة . فقد كانت والتستر خلا الى أن كانت ليلة الامس مشرقة هادئة وعلى التل القليل الارتفـاع لمحوا هيكلا قصيرا يجثوا فـوق رماله .. ثم ينبعث الصوت الذي طالما سلبهم لبهم ..

وسما بهم •• وانتزعتهم من نشوتهم •• مفاجأة شرذمة من العصابات الصهيونية بالعدوان •• فاشتبك جنودها معهم في معركة حطمت قوة المعتدين وان تخلف عن جنودنا قليل من الجرحى كانت بينهم صاحبة ذلك الصوت المغرد •• ولقد اكتشف أمرها بعد ان جرى التحقيق صباح اليوم التالي في شأنها •• ووضح بأنها كانت تغني للجنود القابعين عند خط النار للترفيه عنهم •• ثم سكتت صديقتي لتضيف : مسكينة انها مصابة بجرح خطير في جنبها الايسر ••

وهنا تحطمت من الصدمة وتهاويت فوق مكاني أنشج قائلة : انها نازك •• واتسعت عينا صديقتي استغرابا وفتحت فمها لتسألني شيئا • ولكنني عبرت باب الغرفة وفي لحظة كنت أمام الفراش الذي استلقت عليه نازك كما خمنت •• وكانت متهدجة الانفاس كالمحمومة •• فاقتربت منها برغم معارضة الممرضة •• وهززتها بيدي •• ففتحت عينيها وأشرق فيهما بريق خاطف • ثم هتفت بأسمي بنبرات متحشرجة • فقلت لها بصوت خافت وأنا أبكي : نازك حبيبتي كيف فعلت هذا ؟

وهزت رأسها وعلى شفتيها طيف ابتسامة • وقالت بصوت متقطع : لم يكن لي في هذه الدنيا من أحب غير الله والانسانية ووطني •• ولم أفعل سوى القليل •• وعندها لم أتمالك نفسي فأمسكت بيدها وانكببت أقبلها •• أقبل يد أختي في العروبة ••

وفي تلك اللحظة لمست كتفي يد • فاستدرت لاجد الطبيب يغمغم لي بارتباك شفعه بابتسامة اعتذار : أرجوك •• سنجري العملية توا ••

فوقفت وأنا أخفي وجهي بين يدي •• وبعد ان استغرق التخدير حواس نازك •• ونقلت الى غرفة العمليات ، وعندها وجدت صوتي فهتفت : في رعاية الله يا نازك •• ومضت بي الساعتان وكأنهما دهر •• وأنا أطوف أمام الغرفة وفي البهو •• وعندما خرج أحد الاطباء كان يبدو منهكا وقد أخذ يمسح العرق الذي غمر وجهه •• أسرعت اليه أهزه ولم يسعفني النطق ••

وعلم من نظراتي المتطلعة الى الغرفة بأنني أسأل عنها •• فأشرق وجهه وقال : اطمئني لقد نجحت العملية •• ولا شك بأن فرحتي وانفعالي كانا غامرين ، فقد اقترب الطبيب مني قائلا : هناك ما أحب أن أسألك اياه يا آنسة ولكنني أجد بعض الحرج •• ما هي الصلة التي تربطك بها ؟ فقلت له بلهجة مهووسة ماذا ؟ •• انها أختي في العاطفة •• انها صورة لكل عربية •• رمزها التضحية والبذل ••

ولم أعجب عندما لمس الطبيب رأسه بيده قائلا : تحية لها ولاخلاصك •• ومثلها لك يا بلدي •• اذ كانت منك مثل هذه العزائم ••

وبعد أيام كنت أجاور فراش نازك وقد تحسنت صحتها قليلا •• ترافقها تلك البسمة الرائعة التي تجسم جمال روحها المحطم لكل حسن معنوي •

وأنا أحس باعتزاز وقد منحني الله حب وصداقة •• بطلة من بلدي •

الشعر بين العقل والعاطفة

بقلم : جميل علوش

يستعمل أدباء هذا العصر كلمة العاطفة والتجربة النفسية مرارا وتكرارا او يسندون اليها الجانب الكبير من العمل الشعري . أعني أنهم يجعلونها الركن الاساسي في نظم الشعر ويهملون باقي الاسس التي يرتكز عليها والتي يعترف بها النقد والذوق والعقل . والانكى من ذلك أنهم يجمعون هذه الكلمة « تجربة » جمعا لم تعرفه العربية ولم يعرفه الشعر ولا الادب . انهم يجمعونها على « تجارب » بضم الراء وهو نهاية السخف ، اذ لم يرد في أصول اللغة جمع على وزن « تفاعل » بضم العين بل بكسرها .

ويختلط على كثير من الادباء الفصل بين دور كل من العاطفة والعقل في العمل الشعري . وكثير منهم يتجاهل عمل العقل تجاهلا كليا ويفترضون أن العاطفة هي كل شيء وبدونها لا يمكن لاديب أن يقدم انتاجا ذا قيمة . وهؤلاء الذين يقولون ان العاطفة هي الاساس في الشعر يناقضون أنفسهم من حيث لا يدرون . فهم قبل كل شيء لا يعترفون بشعر المناسبات مع العلم أن هذا النوع من الشعر صادر عن عاطفة . اذ ان المناسبة تكون قد أثرت على الشاعر تأثيرا نسبيا وولدت في نفسه اندفاعا عاطفيا . وتقصير الشعراء في المناسبات غير ناتج عن عدم استجابة وتأثر بالاحداث . ان قتل زعيم وطني لا يمكن الا أن يكون له تأثير طاغ على النفوس . ومع ذلك فان كثيرا من الشعراء يقصرون ولا يصلون المستوى الفني المتوقع منهم في مثل هذه الاحداث . ويظهر لنا مقدار تفاهة العاطفة اذا علمنا أن هذا الشاعر الذي قصر في التعبير عن شعوره في حادثة وطنية مثيرة يجيد ويبلغ ذروة الفن اذا اختلى بنفسه في مكان هادىء بعيد ونظم قصيدة في أي موضوع خطر له . وهو لم يجد في قصيدته هذه لان عاطفة قوية أثرت في نفسه قد يكون ذلك ، ولكن السبب الوحيد في الاجادة هو صفاء الذهن وخلو صدر الانسان من غضب عاصف أو فرح شديد . ان حالات الغضب والفرح من أعداء الشاعرية . ولا يمكن لشاعر أن يكون عميقا في معانيه في حالة أزمة نفسية . ومن الخطأ أن يعتمد شاعر على عاطفته يستوحيها ويستهديها في عمله الشعري . انه بحاجة الى ذهن صاف مولد . والا فما نفع العاطفة ، وهو لا يستطيع ابتكار معنى جديد أو رسم صورة بديعة أو خلق فكرة عميقة ؟ ان العاطفة شيء ثانوي في الشعر ، وهي لا يمكن أن تخلق شاعرا . ان كل الناس يشعرون ويتألمون ويفرحون ويغضبون . ولكن قليل منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسه . وهنا تكمن بذرة الشاعرية . ان القدرة على التعبير عن أماني النفس هي أصل الشاعرية . أما العاطفة فبعيدة عن جذورها وعن أصلها . انها من الفروع التي ليس لها أهمية . في حين أن العقل هو الخالق المبدع وهو المنظم والموزع والركن الاساسي في الشعر . ولا أعتقد أن الشاعر يستطيع النظم اذا وقف عقله عن الحركة أو اذا أصيب بمساس . عند هذه النقطة تنقدح شرارة الخلاف بين الكلاسيكيين أو الاتباعيين وبين بعض مدارس الشعر الحديث . ان هؤلاء يحاولون ايقاف عمل العقل مكتفين بالقرزمة والهمهمة والتلويح بالرمز الذي ليس بينه وبين المرموز اليه أية علاقة . انهم يرتطمون في مهاوي الغموض والتعقيد تطوعا . وسبب الغموض والتعقيد عندهم عدم اشراك العقل في نتاجهم وهو كما قلت الركن الاساسي في الشعر وهو الذي يكثف الشعور ويجسمه في معنى من المعاني ويجعله من الوضوح بحيث يميزه القارىء ويفهمه على أساس من المنطق والتفكير . نحن أبناء

الارض وما أحرانا بأن نخلق لاحاسيسنا التي هي بمثابة الارواح أجسادا بشرية يراها الذهن ويتحققها التفكير ويلمسها الحس . وما دمنا بشرا من ماء وطين فانه من السخف أن نبقى نحدث أرواحا لا نراها ولا نلمسها ومن السخرية أن تبقى معانينا من الغموض والابهام بحيث تصبح كأنها أحلام وكأنها خارجة عن نطاق الواقع ومنحصرة في عالم الارواح . ان هؤلاء الادعياء على الشعر والادب كالابكم الذي لا يفهم الناس ما يقول فيعمد الى اشارات معينة يعبر بها عن نفسه . وهو مهما حاول أن يستعمل من الاشارات فلن يفهم له الا أهله الادنون وأصحابه الاقربون . ولن يكون له عذر في اتهامه الناس بعدم الفهم والعقم والغباوة .

ونحن حين نتكلم عن العاطفة فعلينا أن نفرق بين العاطفة الصامتة والعاطفة الصاخبة لان لكل من الاثنتين حدودا تنحصر فيها ولا تتعداها ، ولان لكل من العاطفتين تأثيرا خاصا على الشاعر . ان العاطفة الصامتة هي تلك التي تكون كامنة في عروق الشاعر وناتجة عن أحداث جسيمة ساورت نفسه . ويختلف انفعال المرء بالاحداث . فمنها ما يكون جسيما ولكنه لا يترك الا تأثيرا بسيطا ومنها ما يكون بسيطا ولكنه يترك تأثيرا عميقا . وعلى هذا فان القصائد التي تجود بها قريحة شاعر ما قد تكون وليدة أحداث بسيطة ولكنها في نفس الوقت عميقة . ومن الملاحظ أن الشاعر يعجز في بعض الاحيان عن نظم قصيدة في مناسبة معينة لها قيمتها ولها تأثيرها . ولا غرو فان العواطف الصاخبة التي ساورته بهذه المناسبة لا تكون بعد قد ترسبت في أعماقه ، ولم يكن بعد قد تمثلها . وشيء آخر وهو أن ضجيج هذه العواطف في صدره يمنعه من أن يخلو الى نفسه فيعبر عنها تعبيرا صادقا اذ ان هذه العواطف الصاخبة ليست الا أطفالا يضجون حول الشاعر . ومن المعروف أن معظم الشعراء لا ينظمون الا في حالة صمت . **واضطراب الاحاسيس** يحول الجو الذي يعيش فيه الشاعر الى ضجيج صاخب يمنعه كما قلت ان يخلو الى نفسه . ونفهم من كل ما ذكرت ان العاطفة الصاخبة تحد من عمل الفكر الذي يولد المعاني ويخلقها وينظمها تنظيما .

أما أسهام العقل في الشعر فلا يقدر . وان مقدرة المرء على استيعاب العبر والدروس مرجعه الى العقل . ولن يكون في استطاعة أي شاعر أن يستفيد من دراساته ومطالعاته ما دام ضعيف التفكير . ونحن ما دمنا نعترف بتأثير الثقافة على الشعر فلماذا ننكر قيمة العقل ؟ وهل يمكن تحصيل الثقافة بدون استعماله ؟ من المسلم به أن لدراسة التاريخ والفلسفة والمنطق وغيرها من المواضع أثرا فعالا على أسلوب الشعر ومعانيه ومنهجه ولنا من الشعراء من يتمثل بهم على ذلك وهم كثرة . ان تفاعل الفلسفة والمنطق في الشعر يظهر واضحا في أدب العصر العباسي الاول . وان الغوص على المعاني والتعمق والاغراب هي بعض آثارها الواضحة .

وهذا من عمل العقل ولا يمكن أن يكون بينه وبين العاطفة أية علاقة . ان عمل العاطفة الوحيد هو الحفز والاستحثاث وهو ما كان القدماء يسمونه الشهوة لقول الشعر . وأكتفي بهذا القدر في ايضاح العلاقة بين الشعر وكل من العاطفة والعقل وتبيين أهمية أحدهما بالنسبة للآخر ، على الرغم من أن الموضوع واسع والحديث ذو شجون .

وجوه من المسرح العالمي

بقلم : الدكتور رفيق الصبان

- ٢ -

تتمة المقال المنشور في العدد الماضي

هيا .. تعال معي .. وسأحدثك حديثا ناعما .. كالذي كانت تحدثك به والدتك وأنت طفل صغير .. وتخرج العجوز الى الطريق والظلام .. بينما ينفجر صاحب الفندق ضاحكا ..

ان من يعرف مسرحية (عربة يدعونها اللذة) سيدرك ولا شك مدى التشابه الكبير بين هذه الشخصية وشخصية بلانش .. وان كان ويليامز قد أضاف لبلانش شاعرية وطلاء وصفة تفتقر اليها بطلة هذه المسرحية الصغيرة . فبلانش أيضا .. بعد أن تفقد الصواب تماما .. فرفض الخروج من دار افتها .. ولا تقبل بالمسير حتى يأتي اليها الطبيب موهما اياها أنه سيأخذها الى أصدقائها البعيدين عندئذ تبتسم بلانش وتقول بصوت مبحوح لا روح فيه .. (اني أؤمن فيك .. دون ان أعرفك .. سأتبعك .. لاني أؤمن دوما بوجود الغرباء)

وتخرج بلانش في طريقها الى دار للمجانين .. حيث الوهم يمكن أن يكون عالما حيا قائما بذاته .

أما مسرحية ويليامز الثانية التي نرى فيها ملامحا أولية لبلانش .. فهي (كلمني كالمطر ودعني اسمعك ..) ففي هذه المسرحية .. نرى امرأة ورجلا يتحدثان .. أو بالاحرى نرى امرأة تحدث رجلا .. شبه نائم .. عن عالمها القاتم .. عالم الجدران البيض .. عالم الحوت .. عالم المرض .. ومن هنا .. نراها تنحدر ببكاء مروع الى الحديث عن الجنس .. الذي بدأت تجد فيه الهدى الحقيقي لروحها القلقة .. انها تشعر بواسطته بجسد بشري يلمسها .. وينسيها وحدتها المنسوجة من خيوط العنكبوت الاسود . المسرحية ليست الا مونولوجا طويلا .. يختلط فيه المريع بالشاعري .. الاثم بالشفافية ويبرز منها وجه المرأة رائع مسيطر يذكرنا بأنه شخصيات ويليامز المنسوبة .. (الما) في (صيف ودخان) (بلانش) في (عربة يدعونها اللذة) وحتى باص القطة في (قطة على سطح ملتهب من الصفيح) بلانش ديبوا هي كل ما ذكرته .. امرأة عاشت الموت منذ طفولتها .. رأته وهي تحياني منزل أبويها الفخم في الجنوب العريق .. رأت كيف تموت الدار .. وكيف تطغي الاعشاب على الجدران والفرن التي لا تزال ترن فيها أصداء الضحكات ..

رأت كيف تموت قطع الاثاث الغريزة .. وتذهب الى أيدي التجار السوداء ..

رأت أمها تنام على الارض .. في هذه الغرفة الكبيرة ذات السقف المرتفع .. والنوافذ المزركشة .. رأتها كيف تموت بين الصديد والدم .. ثم اكتشفت كيف يمكن أن تنجو من هذا الواقع الرهيب .. بأن تلبي نداء الجنود الذين يقفون تحت نوافذها ليصرخوا بصوت موسيقي أشبه ما يكون باغاني الزنوج .. اسمها .. بلانش .. بلانش .. أي بيضاء .. بيضاء .. وتهبط بلانش اليهم .. لتتسنى في ثورة جسدها المسكين .. الموت والصديد .. والعفن ..

ولكن من هذا العالم .. استطاعت بلانش أن تحب .. أحبت شاعرا شابا .. رقيقا مرهفا .. يقف في الليالي السوداء .. يبكي على مصير القمر .. ويلمس الاوراق الذابلة بحنان ساهم .. ويمسك بيدها ليردد اسمها .. بصوت كالدعاء .. أو كالتوسل .. بلانش .. بلانش .. أي بيضاء .. بيضاء .. أحبته وتزوجته .. وبدأ يكتب لها .. رسائل طويلة زرقاء .. وبدأ يبكي أمام فراشها في الليل .. فراشها الابيض .. الذي لا

زال نقيا .. بدأ يحدثها عن الغيوم التي لا ترسل المطر .. وعن الحيوانات ذات العين الواحدة التي تهيم في الليل باحثة عن رفيق لها ..

ولكن بلانش لم تفهم سر الشاعر المسكين .. كانت لا زالت غارقة في شبابها في سيطرة الاوراق المرتعشة الخضراء .. انها لم تصل بعد الى مرحلة النضج الخريفي من نفسها ..

رأت كيف ينهض الجسد البشري .. وكيف يوضع في تابوت مغلق .. وكيف تغلق عليه المنافذ بالمسامير المهترئة .. رأت كيف يضعون أمها في تابوت ويأخذونها بعيدا عنها .. ثم رأت عمتها العجوز السمينة .. رأتهم كيف يحالون وضعها هي الاخرى .. وكيف عجزوا عن ذلك .. لان جسدها المتعض الورم لم يدخل التابوت الصغير .. مما اضطرهم الى حرقها وتقطيعها .. ثم رأت بعد ذلك الورود الانيقة .. والبنفسج الذي يضعونه فوق صندوق الموتى .. يخفي الفاجعة .. ويخفي العفن والصديد .. رأتهم كيف يقفون مطأطأي الرأس .. هؤلاء الذين كانوا يصفرون أغنية ماجنة .. وهم يحرقون جسد المرأة المسكينة المتنفخ ..

وهربت بلانش الى عالم الخمر..وعالم الجسد.. هذا العالم الذي يجعلها ترى الدنيا من خلال ضباب ويجعلها تنظر الى القمر وتصرخ به دون كلفة (مساء الخير أيها السيد القمر) .

ما أشبه بلانش هذه .. بتلك الطفلة المسكينة التي يصفها وليامز في مسرحيته (الملكية المملوكة) التي لم تبلغ بعد الثالثة عشرة .. ولكنها ترتدي مع ذلك ثوبا مكشوفا للسهرة وحذاء ذا كعب طويل .. وتقف على سكة القطار وفي يدها الواحدة حوزة فاسدة وفي الاخرى لعبة خرجت احشاؤها .. لتحدث صديقها الطفل ..

مساء الخميس ٢١ كانون الاول ١٩٦١ أحيا منتدى (رواد الادب) بدمشق أمسية شعرية فنية كبرى بمناسبة دخول رابطة (رواد الادب) في عامها الرابع .. وقد غصت قاعة المنتدى بكرام العوائل الدمشقية وبالادباء والفنانين . وقد ألقى بعض شعراء الرابطة وقصاصيها قصائد وقصصا عديدة بالمناسبة ، كما قدم عازف البزق محمد عبد الكريم (أمير البزق) مقطوعة أهداها للرواد .. واسمها (الرواد) كما غنى المطرب وحيد ماضي مقطوعة من شعره وتلحينه بعنوان « المجد للرواد » . أما الفنان زهير زرزور فقد شنف الآذان بمقطوعة على العود أسماها (تمتمات) ..

ورابطة رواد الادب تشكر جميع من لبوا دعوتها وجرى انتخاب للهيئة الادارية الجديدة للرابطة ، فاز فيه :

محمد كناكري ـ رئيسا .

موفق وهبة ـ نائبا للرئيس .

أكرم سعد الدين ـ أمينا للسر .

محمد وليد فستق ـ محاسبا .

عبد الكريم عبد الرحيم ـ أمينا للصندوق .

عمر كتمتو

هشام زيات

خالد المصري

سمير شيخ الارض

أعضاء في مجلس الادارة .

الديوان الشعري الثاني للشاعر محمد كناكري يصدر قريبا عن (دار الثقافة) بدمشق ... صمم الغلاف الفنان حمدو زلف

هذا الطيب كانون

قصة بلغارية بقلم : كروم غريغوف

تعريب : هشام الحكيم

لقد اعتدنا في مطلع كل عام وفي حفلة السنة الجديدة أن نرمي أثقال السنة الماضية ومتاعبها على القديس باسيل . لقد كان يوم ١٤ كانون الثاني هو اليوم الذي نحتفل فيه بالعام الجديد .

أذكر وأنا صغير وكنا نحتفل بهذه المناسبة أمام طاولة ذات قوائم صغيرة ..

أن قال جدي : وهو ينظر الينا الواحد تلو الآخر نظرات نصف مغمضة يداعب بيده الشاحبة شاربه الهزيل . نأمل الا نلاقي في هذه السنة ما يشبه ما لاقيناه في السنة الماضية المودعة في هذا اليوم . ونأمل أن تكون عنابرنا ومعدنا ملأى في العام الجديد .

لقد مضت السنة الماضية وعنابرنا لم تزل تشكو نظافتها من الدقيق .

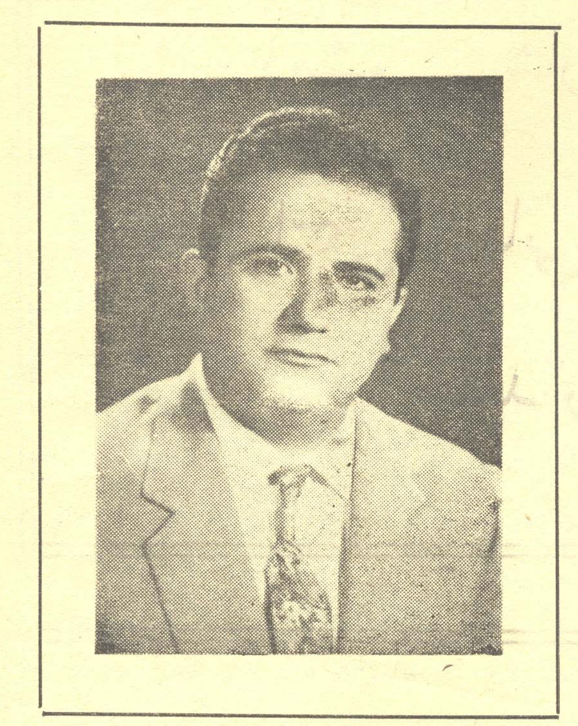
وحدث في هذا اليوم الذي نحتفل فيه بالعام الجديد ان كانت غرفتنا خالية حتى من أصغر حبة دقيق . لقد هبط علينا الليل والنافذة مغطاة بقطع الجليد وفي الخارج كان الهواء يعصف ويزمجر ويستطيع أن يحيينا بقسوة وعنف من خلال شقوق الباب . والنساء كانت تجمع بعض الاغصان الهزيلة الميتة ليدفئن الغرفة قليلا .

أما نحن الاطفال فكلنا ننتظر المعجزة (حضور الطيب كانون) حاملا هداياه كما كنا نسمع بالقصص الخرافية .

لقد خيل للجميع صغارا وكبارا ان الاب كانون لن يكون سوى جدي الذاهب من الظهر يدور حول الطواحين محاولا أن يجد كيسا من الدقيق .

ولم تفارق أنظارنا الباب . طمعا بحلم جميل هو عودة جدي .

ولكن ما ظهر لي أن هذا الطيب قد عاد حاملا



كيسا فارغا ومعطفا ممزقا ووجها أسود مزرقا من البرد ونتفا من الثلج عالقة على سرواله ، يئن تحت قدمه جورب ممزق يسمح للاصابع ان تخرج منه .

رمى جدي كيسه الفارغ ودون أن يلقي تحية المساء جذب أطراف شاربه والتفت نحو جدتي التي كانت تقف خلف المدفأة قرب ايقونة تهم بأن تشعل لها الزيت الذي احضرته بفنجان مكسور الاذن من عند الجيران .

لم يقم جدي الا بحركة واحدة حتى انتصب أمام جدتي وأخذ الفنجان ورماه بعنف على الارض وحطمه بقدمه فأحاله الى قطع صغيرة . نظرت اليه جدتي نظرة ملؤها الغضب ولكن جدي .. جدي نفسه .. لم يرتجف هذه المرة بل تمتم بصوت مرتفع .

الى الشيطان أنت وأيقونتك وجميع القديسين الذين حواهم تقويمك طالما انهم لا يصنعون شيئا من أجلنا •

لقد رجوت جميع الطحانين واحدا واحدا ولكن احدا لم يعطني شيئا حتى الطواحين كانت مجمدة فالذين يملكون الدقيق حملوا أكياسهم ورحلوا •

لم نتمكن من ابداء أي ملاحظة حتى جدتي الغاضبة خفضت رأسها وسكتت •

لقد خيم السكون ولم يعد مسموعا الا هرير الهرة الجائعة المكورة خلف الباب بعد ان كفت عن البحث وفتر نشاطها ويئست من الفئران الهاربة منذ أمد بعيد بعد أن قضمت السلة وأبواب العنبر المطلية بروث البقر •

أما انا فلم اكن أفكر في الطيب كانون ولا بهدايا السنة القادمة جل ما كنت أفكر به هو ايجاد شيئا آكله في هذا المساء •

عكرت جدتي السكون بكسرها الاغصان الهزيلة لتقدمها طعاما للموقد الجائع ولاول مرة تخلت والدتي عن وجومها وتمتمت بصوت منخفض •

لم يبق أمامنا الا الشحاذة في الازقة •

وأخذ جدي بعد ان لامسه الدفء يداعبني مدللا وقال بحنو : أترى ياكومية لو مر مئات الاعوام الجديدة على البؤساء فكل عام مثل سابقه لا يحمل شيئا حسنا •

فأشفقت عليه وأخذت أداعب شاربه • وفي هذه الاثناء احضرت والدتي كرة من عجين الذرة استعارتها من عند الجيران وبعد قليها وضعها جدي على الطاولة وقسمها الى أقسام كثيرة بخيط رفيع وأضاف اليها بعض الخضار المسلوقة والمحفوظة بالخل وقدم للكبار قدحا من الكونياك وما هي الا لحظة حتى عادت الطاولة الى نظافتها •

وسمعنا فجأة طلقا يدوي في الخارج وكان صادرا عن المتنكرين الذين أخذوا يتجولون معلنين العام الجديد فارتجفنا بنفاذ صبر وأخذت النساء تغطي الارض بالحصير البارد ووضعن عليه بضع وسائد بالية •

كان الليل ساكنا والضباب يغطي الوادي تاركا رائحة خاصة تشمها بكل شهيق والطريق قاحلا • وفي الحظيرة المجاورة حمل يثغو ويجاوبه آخر بصوت عذب كان لوقعه أحسن أثر في تبديد سكون الوادي الثقيل •

لقد حمل الي هذا الصوت الربيع بمزاميره الجميلة ومراعي (سيلسكا ـ نيفا) (والريدار) • لقد حمل ضجيج النحل وأصوات العصافير على الاشجار الشاهقة والسنديان وأخذت الحيوانات الصغيرة تلعب فوق الاعشاب النابتة • والشحارير والبلابل والعصافير الصغيرة أخذت تتقاطر وتملأ الحقول شدوا • وعلى قمم (بروسارتزي) كان قطيع من الغنم يرعى بسعادة •

لقد انسقت مع أحلامي ونسيت تماما رداءة الجو حتى خيل الي أن الجميع بخير وازداد حبي لجدي ولزمجرته كلما فتح الباب •• ورغم ذاك كان فرحا ولم يكن البرد يؤثر عليه بعد أن عبق البيت بحرارة الشباب التي حملها المتنكرون •

لقد دخل الزوج تتبعه زوجه أما الزوج فهو (ديكو) شاب جميل يلبس قميصا أبيض مطرزا وعلى القميص كان يضع سترة جديدة وعلى رأسه قبعة مخملية •

أما العروس فكانت تلبس ثيابا مزخرفة بشرائط حريرية تنتهي بانحناء عند الصدر وقميص مخرج بالدانتيل من الاسفل وعلى الاكمام • وتضع على رأسها شالا يخفي وجهها • وكانت تختبىء وراء زوجها طورا وحينا خلف صهرها الذي تمنى لنا عاما سعيدا ودعا الفتاة الجميلة لتقبل يد جدي •

انحنت الجميلة ثلاثا وقبلت اليد وانحنت من جديد متجنبة الكلام لئلا نعرفها من صوتها ولم نتوصل الى ذلك رغم فضولنا • اما جدي فقد أخذ يجول ويجول مرتبكا لان العادة كانت تقضي بأن يدفع قطعة من النقود للعروسين • ومن حسن حظه فقد تقدمت جدتي ومعها قطعة النقود التي كانت خبأتها في كعكة عيد الميلاد واعطتهم اياها بين شهقات الكبار من أهل المنزل •

تأخر العروسان وجاء دور الدب مصحوبا مع مدربه

وسلته وكان وجه المدرب مطليا بالهباب الاسود ورغم ذلك فقد عرفناه بسهولة انه العم نيقولا .

لقد شعرنا عند تقدم الدب برجفة محببة وتقدمنا منه (انه يشبه شابا مغطى بجلد حيوان) لمسته بظهره فزمجر وأمسك فروة جدي يريد جذبها .

ولقد أحضر الشباب معهم أيضا لعبة ذقنها من الالياف المحملة بشموع لامعة من الجليد . وتحمل بين يديها قدرا وغصنا من الحبق . داروا به زوايا الغرفة ليطردوا الشياطين منها .

لقد كان الشباب لا يقلون عن ثلاثين شابا . اثنان منهم يحملان برميلين من الكونياك والبعض الآخريحمل الاكياس ليضع بها الدقيق وآخرون يجمعون الفواكه المجففة كاللوز والجوز والتفاح .. وعلى الاصح فانهم كانوا يأخذون كل ما يعطى اليهم .

أخذ (زاره) عازف الكمان بعد أن أدفأ يديه على لهب النار وفرك قوسه يعزف (السيلسكوهورو) . فدب النشاط بالجميع وتخاصر الشباب ممسكا كل منهم بنطاق الآخر .. وأخذوا يرقصون .

لقد كان العريس يقود حلبة الرقص متبوعا بزوجته العزيزة . واللعبة في الوسط والعريس يتمايل الى الامام والوراء تبعا للنغم .. منبها .

ابق في مكانك .. أنت تقدم .. ارجع .. موجها العازف أقل خفوتا .. أعلى .. مما جعلني اعبد هذه اللوحة الجميلة وشعرت بأني مع الملائكة .

صرخ أحدهم : لتبق صحتكم جيدة لاعوام طويلة .. وكانت الصرخة ايذانا لمدرب الدب فطلب من الحضور أن يتقدم أحدهم فتقدم جدي ليقف الدب عليه . فنام منبطحا وصعد الدب على ظهره .. بين أصوات جدي المختلطة . من الالم بهدوء .. هنا على الاضلاع .. اني أشعر بأني لا أستطيع السعال .

تقدم مدرب الدب منا نحن الاطفال فهرعنا خائفين لان أحدا منا لم يفكر أن يكون مرتعا لاقدام الدب .

لقد جاء دور التقاليد والعادات .. ماذا نعطي هؤلاء .. وما نضع في براميلهم اما امي وخالاتي فقد رفعن اكتافهن ونظرن الى جدي وجدتي . ورغم ما كان يعرف عن جدي من بخل نزل الى الكهف وأحضر كل ما لدينا من الكونياك وأفرغ بعضه في براميل الشباب ولم تشأ جدتي أن تقف مكتوفة الايدي ، فحملت حزام التوابل من على الطاولة ووضعته في عنق أحدهم كقبة قائلة :

لا أعلم ما يجب أن أقدم لكم .. ولا أستطيع الكثير .. فلا دقيق عندنا .. ولا شحم .. ولاخضار.. ولكن كما أرى عندكم منه الكثير .. واعتقد ان صحنا شهيا عليه كثير من التوابل هو الافضل دوما

انتهى العيد وعاد الجميع الى أعمالهم وكذلك عاد جدي يلعن السنة الجديدة التي سوف تكون العن من سابقتها .

دعني

دعني خليلي في عذابي انما مثلي يحق له العذاب الاكبر

أني فعائل لو علمت بأنها فعلي لقلت بأن حقي أكثر

لا يأخذنك بي هدوئي أنني متلاطم في داخلي متكدر

الحسكة ـ خليل النعيمي

سمراء



عبد الرحيم مصطفى



سلبوك بين مورد ومزنبق   فبأي حسن أنت أولع يا شقي
لك وثبة الظمآن حين ترى الصبا   يسري بكل مهفهف ومؤنق
للقلب في عرف المحبة واحد   أما هواك فللجمال المطلق
والعين أقدر آمر لك كلما   خطر الجمال دعتك يا قلب أخفق
أملبي العينين حسبك انما   صور المشيب تسربت بالمفرق
صافتك من غرر الحياة جوانب   فجنيت نعمة عابر متألق
لم أنس عهدك يا معذب والمدى   يزهو بكل مبرعم ومفتق
وضمائم الجوري تمطرك الندى   من نشر كل مأرج ومعبق
يا طيب وقفتنا وقد حلم الدجى   والشهب بين مؤرجح ومعلق
وكأنها درر تبسم ثغرها   فتلامعت من تحت شال أزرق
وهناك حيث يحار في بوح اللقا   نهم المواعد أي كنز ينتقي
رمت السعادة بردها فتطايرت   نجواي طير مرفرف ومحلق
سمراء ما سكر الربيع ولا انتشى   لولا نسائم سحرك المتدفق
شعرية النظرات أي معربد   من مقلتيك طغى ولم يترفق
لولا شفاهك ما تذكرت الطلا   متغنيا وعبدت كل معتق
موت الشفاه على الشفاه عبادة   فلنقض من عهد الفتوة ما بقي
لله شوق مجالد لمعاند   لم يفن درع من رداه ولا يقي
يدع الفراش على الشفاه مضرجا   بدمائه ويقول يا عين اتقي
يا موسم التفاح في تشرينه   طلع الخريف وودع الصيف النقي
بالامس كنت على السفوح مهدلا   والكون بين مفرد ومزقزق
واليوم يا للصيف ودع وانقضى   فانفض أكفك من رباك وصفق
لم أدر ان كنا وقد جرت النوى   بعد ارتحالك يا مودع نلتقي

أغاني الهوى

شعر : ممدوح مولود

صاحبي لا تقل غرامك ساخر   أنا أفدي بمقلتي الحرائر
ذوب الشوق أضلعي وبراها   لاعج الوجد للعيون السواحر
واستبد الضلال بي ورماني   في نيوب من الجوى ومجازر
واغتدى الليل صاحبي وسميري   وأنا الفاتح الغضوب المغامر
عندما بت في الدروب جريحا   بسيوف أمضى السيوف البواتر
فالجريح الجريح ليس جريحا   دون جرح من جارحات النواظر
والقتيل القتيل ليس قتيلا   وهو بين المدى وبين الخناجر
دون أن .. دون أن يكون قتيلا   في العيون المدمرات الغوادر
والصريع الصريع ليس صريعا   دون امس مع الكؤوس الفوائر
لوعة الحب جزية تتقاضى   رسمها ويحها الجفون الفواتر
ندفع الرسم في رضى وخضوع   ليس الا الجمال والله آمر
عندهن المحب تاجر ود   والمحب الوفي أصدق تاجر
ما عرفن الحياة يوما بعمق   نظرة الحب لا كنظرة عابر
ما أرق الحنين ينساب وجدا   من هواهن في قصائد شاعر
يحمل الشوق فهو دوما مشوق   وهو دوما بين الخمائل طائر
صاحبي لا تقل غرامك ساخر   أنا افدي بمقلتي الحرائر
حسبي اليوم ان قلبي ملك   للغواني وأنهن الاوامر

حساب مع المترجمين

بقلم : سليم بركات



ان من يتابع نتاج المطابع العربية في الآونة الاخيرة ودور النشر في كثير من بلدان العرب وبخاصة لبنان يغتبط غبطة حقيقية لظاهرة ذات دلالة ثمينة طيبة بالنسبة للكشف عن ميل القارىء العربي واتجاه عقليته وبالنسبة لمستقبل التفكير والثقافة في العالم العربي . هذه الظاهرة هي تزايد الاتصال بالثقافة العالمية وبانتاج كبار الكتاب والمفكرين ومن شتى الامم عن طريق هذا الطوفان المتزايد من الكتب الفكرية والقصصية المترجمة التي كثرت في الفترة الاخيرة كثرة تكاد تدعو الناظر الى أن يعتبر نشاط الترجمة أبرز نواحي النشاط في حقل الكتابة والنشر .

ومهما اشتد سيل الترجمة وكثرت التراجم فان ذلك لا يجب أن يزيدنا الا استبشارا وثقة بمستقبل الثقافة العربية ويقينا بأنها ستنمو وتكتسب عناصر قوية جديدة تدعم كيانها الذاتي وتجعلها أكبر قدرة على خدمة الحياة العربية المعاصرة في وجوهها العقلية والمادية .

ولكني رأيت في هذا المقام أن الفت النظر الى ناحية على جانب كبير جدا من الاهمية بالنسبة لفائدة الترجمة وتحقيقها للهدف الذي يرمي اليه أهل الفكر والثقافة من نقل الكتب الاجنبية وقراءتها ، هذه الناحيةهي وجوب مراعاة الدقة القصوى في نقل الاصول الاجنبية دون ادخال المترجم لتقديراته وآرائه على مجال عمله أو تعسفه في الحكم على النصوص وتسرعه في بترها وتبديل معالمها .

ان القارىء يريد عندما يمسك بكتاب مترجم ليقرأه ــ يريد أن يقرأ ما كتب المؤلف الاصلي وهو انما يندفع الى شراء الترجمة والى انفاق وقته في مطالعتها رغبة في المؤلف وفي الاطلاع على انتاجه وما يتضمنه من الجديد وهو يريد أن يكون المترجم وسيطا أمينا بينه وبين المؤلف ينقل له أثره بكل ما يشتمل عليه من أفكار ومعان ومن اشارات وتلميحات ومن مزايا أسلوبية وتعبيرية . فاذا تهاون المترجم في نقل الاثر الاجنبي بحيث يفقده كثيرا أو قليلا من عناصره الجوهرية أو الشكلية فانه يكون قد خدع القارىء وسرق ماله ووقته وكذب عليه حين ادعى له أنه يقدم له الكاتب فلانا في نفس الوقت الذي قدم فيه الكاتب تقديما غير كامل أو مغايرا لحقيقته مغايرة تكثر أو تقل .

انني لا أستطيع أن أطلق حكما واسعا أعين فيه من المترجمين من يؤدي واجب الترجمة الامينة حق الاداء ومن يقصر في اداء هذا الواجب فيشوه آثار المفكرين

بتلاعبه أو بتساهله لكني أعرف أن هناك مترجمين كثيرين ينقلون الكتب الاجنبية نقلا مشرفا يدل على قدرتهم ومجهودهم المضاعف الذي يبذلونه مرة لنقل النص كما هو بكل مزاياه واشاراته ومرة أخرى لملاءمة الصياغة العربية الصحيحة • وأعرف مترجمين آخرين يؤسفني أن أقول انهم لا ينظرون الى شيء سوى انجاز الترجمات ودفعها الى المطابع والاسواق ، وترى أنهم في سبيل السرعة التي هي رائدهم الاول يخرجون ترجمات يشذ بعد صياغتها عن أسلوب الكلام العربي وتفارق النصوص الاصلية المنقول عنها مفارقة يتغير المعنى فيها أحيانا ويفقد هذا المعنى أو يندس تحت أردية الغموض أحيانا أخرى وبحيث يصل الامر بالنسبة لكثير من الترجمات الى حالة أرى أنني اذا قرأتها لا أكون قرأت الكتاب الذي ظننت انني بدأت قراءته لانني أعتقد أن تغيير سطر واحد من كلام مؤلف ما كان للحكم بأن الكلام كله لم يعد كلام المؤلف • ويرجع ذلك الى أن عملية الكتابة والتأليف عملية على قدر عظيم من التعقيد والدقة وان بين المؤلف وبين الكلمات علاقة غريبة شائكة يكفي أن يكون الانسان قد سبق له أن كتب شيئا من الشعر أو النثر الصادر عن أعماق تفكيره حتى يدرك تماما أن المؤلف عندما كتب أفكاره كانت طوائف معينة من الالفاظ هي ما استدعاه تفكيره الى قلمه وان نسقا خاصا من الصياغات استجاب لشعوره ومطالب فكره بينما استبعدت الفاظ سوى تلك الالفاظ ونسق من الصياغات غير ذاك النسق واذن فلا بد أن يكون ما وقع عليه الاختيار وثيق الصلة بالكاتب وأفكاره ونوع تصوره لها ولا بد أن ما لم يقع عليه الاختيار كان بعيد الصلة بها او قليلها •

وكثيرا ما يكون وضع لفظ قبل آخر أمرا ذا أهمية جوهرية في فهم الكاتب لفكرته وتحديده لقياساتها رغم وجود قواعد نحوية تجيز أوضاعا أخرى في المقام ذاته •

كل هذا أقوله احتياطا لما قد يجيب به البعض ممن يعنيهم الامر أو سواهم ردا على ما أرمى اليه من تعرف المترجمين وعدم اصطناعهم الدقة اللازمة في نقل الآثار الاجنبية اذ يقولون مثلا ان السطر كذا حذف لان المعنى ظل مستقيما بعد حذفه وان التعبير كذا قد غير لان التغيير لم يؤثر على أساس المعنى وغير ذلك من الاقوال •

والواقع ان الاثر الفكري الذي تدفعنا قيمته وقيمة منتجه الى نقله للغتنا يجب أن يكون لدينا بشأنه فكرة سابقة على كل محاولة للترجمة والنقل هذه الفكرة هي أن مقاصد المؤلف لا تتحدد بالمعاني الرئيسية وحدها وانما تتعداها الى أدق أساليب الصياغة والتعبير التي استخدمها المؤلف لاداء معانيه وان كل تصرف في الاداء والصياغة لا بد أن يتبعه تغير في الصورة التي ينتقل بها المعنى الى نفس القارىء •

زد على ذلك ان المترجم لا يملك مطلقا أي حق يتمكن به من تغيير أثر المؤلف وتبديل معالمه وما هو الا ناقل يجب أن يكون أمينا أمانة كاملة وليس له أن يتحكم في انتاج غيره تحكما متعسفا لا سيما اذا كتم تحكمه ولم يبين أنه تصرف في كذا وكذا من الامور •

أردت التقديم بالملاحظات السالفة قبل أن أتحدث عن واحد من الكتب التي ترجمت في الآونة الاخيرة لمؤلف من أعاظم كتاب العالم هو جورج برنارد شو فمثل هذا الاديب العظيم تشتد الحاجة الى دقة ترجمته دقة متناهية نظرا لاسلوبه الساخر وفلسفته النقدية المبثوثة في مسرحياته التي كثيرا ما تطوي جمل عابرة منها بل طرق أدائها وتعبيراتها آراء وملاحظات على جانب كبير من الاهمية والعمق •

والكتاب الذي أعنيه هو مسرحية ميجر بربارة الذي قام بترجمته الى اللغة العربية الاستاذ أنيس زكي حسن وهو مترجم عرف القراء كتبا هامة أخرى قام بنقلها الى العربية مثل كتاب اللامنتمي وكتاب طقوس في الظلام وكتاب سقوط الحضارة والكتب الثلاثة من تأليف كولن ولسن • بالاضافة الى كتب أخرى أحدها كتاب السقطة للكاتب الفرنسي ألبير كامو ومسرحية العودة الى متيو شالح لبرنارد شو •

لقد قمت عن طريق المصادفة بالمقارنة بين بعض صفحات ترجمة ميجر باربارة والاصل الانجليزي فلفت نظري بعض الخطأ والتشويه • الامر الذي دفعني الى متابعة عملية المقارنة حتى بلغت ثلاثين صفحة من الطبقة العربية هي تمام الفصل الاول من المسرحية التي تبلغ مئتي صفحة وكانت نتيجة المقارنة في نظري نتيجة تجعلني أقول بكل أسف ان الاستاذ المترجم لم يعط لهذا الكتاب الدقة والصبر الذين يقتضيهما نقل أدب عالمي كأدب برنارد شو وقد وجدت بعض المقاطع التي تعرضت للحذف أو التي تعرضت للترجمة غير الدقيقة ووجدت بعض الجمل التي ترجمت ترجمة خاطئة تبعد بها عن المعنى المقصود بعدا تاما •

١ – في الصفحة ٥٧ من الترجمة: ليدي بريتومارت سيدة في الخمسين أو حول ذلك ذات تربية حسنة ففي الاصل الانجليزي قبل كلمة التربية الحسنة جملة لم ينقلها المترجم اذ نرى في الاصل •

وترجمتها : حسنة الملباس ومع ذلك فهي لا تعنى بملابسها • يضاف الى ذلك أن تركيب لا يعني هنا حسن التربية وانما يعني نبل المولد أو النسب ويعني ما بعده انها غير مهتمة بذلك أو معولة عليه •

٢ – وفي الصفحة المذكورة في الحديث عن الليدي بريتومارت (عوملت في البداية باعتبارها طفلة مشاكسة • وترعرعت لتكون أما تنهال بالتأنيب الشديد على أطفالها) •

فالمترجم هنا نقل الجملة الانجليزية لكنه تصرف تصرفا ظنه قليل الاهمية لكنه أدى الى اضاعة رأي تربوي كامل يتضح من الجملة الاصلية ولا يظهر واضحا في الجملة العربية يقول برنارد شو :

أي عوملت كطفلة مشاكسة الى أن أصبحت في كبرها أما كثيرة التأنيب •

ففي الجملة الاولى لا يوجد ما يدل القارىء على وجود الارتباط السببي بين المرحلتين وكون سلوك الام ازاء أطفالها نتيجة لما عوملت به وهي طفلة • ان الترجمة العربية قد تدفع القارىء للتصور بأن المرحلتين تعاقبتا من قبيل الصدفة وقد يخطر له أن المؤلف يشير للسببية بينهما لكن التعبير نفسه يظل خاليا مما يوجب هذا الفهم ويجعله ضروريا عن التركيب اللغوي للنص لا مستنتجا من الفكرة وحدها •

وفي صفحة ٥٨ في حديث المؤلف عن ستيفن ابن الليدي بريتومارت ورهبته لوالدته (يرجع ذلك الى عادات الطفولة وخجل الشباب) فكلمة خجل الشباب جاءت ترجمة دقيقة ومعناها خجل العزاب والفرق جلي بين المعنيين وقد يكون برنارد شو لا يوافق على وصف كل الشباب بالخجل بينما يرى العزاب بالذات أقرب له •

وفي صفحة ٦٥ من الترجمة جملة ضاع معناها تماما بسبب تصرف المترجم وكادت تكون بلا معنى فعند محادثة الام لولدها عن أصل والده وكون الوالد لقيطا تقول له عندما بدا عليه الارتباك (أنا أيضا لا أجده – أي الحديث – ممتعا خاصة اذا كنت ما تزال طفلا ، لا تجعل الموضوع يلوح أسوأ بما تعبر عنه من حرج والواقع أن برنارد شو لم يتكلم هكذا وانما قال :

وترجمتها : أنا أيضا لا أجده ممتعا وخاصة اذا كنت ما تزال من الطفولة بحيث أنك لا بد أن تجعله يزداد سوءا بما تبديه من ارتباك وفي صفحة ٦٥ يقول ستيفن لامه : (أجرؤ على القول بأنا كنا أطفالا ناقصين لام كاملة) • وهذه جملة تعطي المعنى الاصلي مجردا من كثير من القوة والتأكيد الذي تعطيه الجملة الانجليزية التي تقول :

أي : كنا الاطفال الناقصين جدا لام كاملة جدا ولا ريب ان الناقص شيء والناقص جدا شيء آخر وفي صفحة ٦٦ (وكانت صناعة المدافع منذ ذلك الحين تترك للقطاء ، لكل لقيط اسمه اندرواندرشافت) فهذه جملة توحي بأنه كان هناك من يبحث عن اللقطاء الذين جاءت المصادفة بتسميتهم مسبقا بهذا الاسم ويعهد لهم جميعا

بالغا ما بلغ عددهم بهذه الصناعة والواقع أن الاصل لا يوحي بذلك مطلقا وترى فيه .

ومعناها : وكانت صناعة المدافع منذ ذلك الحين يعهد بها دائما الى لقيط يتبنى ويسمى أندرو ..

وفي صفحة ٦٠ من الترجمة تقول الليدي بريتومارت لولدها لهذا يجب علي أن أضع كبريائي في جيبي وأطلب النقود (ألا تستشيرني بذلك يا ستيفن) أي أن المرأة تطلب من ولدها أن يستشيرها ويأخذ رأيها بينما في النص عكس ذلك والاصل يقول :

أي : هذه هي مشورتك ياستيفن أليس كذلك .

وفي صفحة ٧٠ (لا تقفز يا ستيفن ان ذلك يرعبني وليس في النص الاصلي أي لفظة تشير الى معنى الرعب وانما استعمل المؤلف فعل وهو يدل على معان لا تخرج عن القلق والتململ والاضطراب ولا يعني حالة الرعب مطلقا .

وفي صفحة ٧٠ بعد قول الام لابنها انها تريد أن يظهر أمام والده بما عنده من قوة وشخصية نرى في الترجمة (ينهض ويحاول ان يضع على وجهه تعبيرا يشبه ذلك) والمؤلف لم يحدد منطقة الوجه لظهور هذه الصفات اذ قال :

وهي تعني انه نهض وحاول أن يكون له بعض الاثر لهذه الصفات والمؤلف لم يقيد المحاولة تبعا بتعابير الوجه لان الجسم كله وطريقة المشي تصلح لها كما يصلح الوجه .

وفي صفحة ٧٤ قام المترجم بعملية حذف خطيرة أفسدت الحوار افسادا تاما وذلك في هذه الجملة (اذا كان ذلك في وسعي ياليدي بريت . لقد تحدث هوميروس عن أتوليكوس فاستخدم هذه العبارة التي تعني أنه شديد نوعا ما) فقبل كلمة قد تحدث هوميروس يوجد في الاصل ما ترجمته اذا كان ذلك في وسعي ياليدي بريت فاني أظن أن تشارلز قد عبر تعبيرا موفقا عما نشعر به جميعنا ..)

وفي صفحة ٧٥ غير المترجم الجملة تغيرا مفسدا للمعنى اذ ترى لديه (ليس منذ أن كانت طفلة صغيرة يا تشارلز كما تعبر عنه بهذه الاناقة في اللغة وهذا التهذيب في التفكير مما يبدو أنه لا يتركك مطلقا .

يضاف الى ذلك أن المترجم لم يفسح للقارىء فرصة ليفهم سر جواب المرأة هذا وسبب نقمتها أو انتقادها لمخاطبها في تحدثه عن ابنتها . وكان يجب أن يبين في صلب الصفحة أو هامشها ان تشارلز لم يستعمل في الحديث عن البنت كلمة رسمية لائقة وانما استعمل كلمة (كيد) التي تعني في الاصل الجدي أو ولد الماعز واستعمال هذا اللفظ للدلالة على الطفل الانساني من حديث العامة المنتقد في أحاديث الخاصة .

وفي صفحة ٧٧ يوجه لوماكس الخطاب الى اندر شافت فيقول له حسب الترجمة (آه دي دو) فالمفروض أن المترجم يكتب للقارىء ألفاظا وجملا عربية مفهومة لكن المترجم هنا نقل الالفاظ الانجليزية بحروف عربية . وماذا عسى أن أفهم كقارىء عربي وأنا أقرأ (آه دي دو) ان هذه الالفاظ جاءت في الاصل بهذا الشكل وهي نفس كلمات التي وردت قبل أسطر وترجمتها كيف حالك ويريد برنارد شو بشكلها الاول هذا ان يتهكم على نطق بعض الناس للالفاظ نطقا فيه حذلقة أو أناقة أو عامية كما صور ذلك في روايته بيجماليون عندما صار يعرض طريقة نطق الفتاة اليزا .

وفي ٧٩ تخاطب ليدي بريتومارت لوماكس قائلة اذا كنت تستطيع ان تتصرف تصرفا حسنا فافعل والا فسأغادر الغرفة .

وترجمتها الصحيحة : اذا كنت تستطيع أن تتصرف تصرفا حسنا فافعل والا فغادر الغرفة .

وفي صفحة ٨١ أنا التي فعلت ذلك يا أندرو وفي الاصل أي لست أنا التي فعلت ذلك .

وفي صفحة ٨٣ يقول اندر شافت مخاطبا لوماكس أشكرك لانك تقول ما يقوله الآخرون عن تجارتي فاذا رأيت الاصل الانجليزي يقول :

لاحظت تبديلا هاما اذ أن ما يقوله الآخرون قد يكون لوما أو ذما أو عذرا أو شيئا من ألوف ما يمكن أن يقال بينما الترجمة الصحيحة : أنا مدين لك لانك تقدم العذر المعتاد عن تجارتي . ويقصد كونها وسيلة لتنفير الناس من الحروب .

وفي صفحة ٨٦ من الترجمة نرى هذه الجملة في حديث كاشنر مع ليدي بريتومارت (لا أستطيع أن أحتمل ما في هذا من ظلم لك ولباربارة) فهذه الجملة لا تعين مصدر الظلم الذي تتعرض له المرأة المذكورة بينما الجملة الاصلية تتضمن تحديد هذا المصدر اذ تقول :

وترجمتها : لا أستطيع أن أحتمل ظلمك لنفسك بهذا الشكل ..

وفي صفحة ٨٨ عن ستيفن : يرتسم على وجهه تعبير شديد الكراهية وهذه ترجمة غامضة جدا :

وكان الاوضح أن تترجم : يرتسم على وجهه تعبير عن الكراهية الشديدة يضاف لما تقدم من الملاحظات المنحصرة فيما بين صفحتي ٥٧ ــ ٨٨ ملاحظة رأيتها في الصفحة (١٠) اذ تقول الترجمة : (اعلان وجهة النظر الشافية (نسبة الى شو) بصورة غامضة :

وترجمتها : اعلان وجهة النظر الشافية بصورة لا غموض فيها .

هذه ملاحظات تقرب من العشرين في صفحات ثلاثين وأنا أخشى أن تكون تراجم الاستاذ زكي حسن كلها بهذا المقدار من الصحة ودقة النقل .

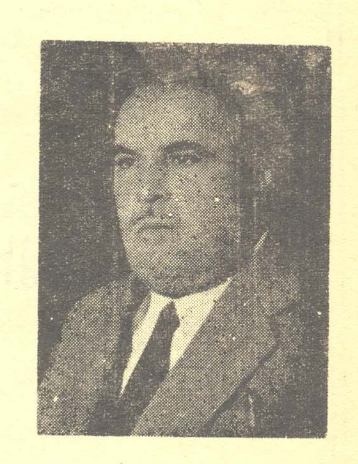
سليم بركات



وجود عوالم اخرى

بقلم : الياس بولس الخوري

كان الاستاذ الياس بولس الخوري قد كتب منذ سنين في جريدة النصر ، وقد كتب في جريدة الايام الدمشقية بتاريخ ٢٦ تشرين أول سنة ١٩٦٠ عدد ٧١٤٢ بحثا قيما عن غزو الفضاء واستحالة الدخول الى الكواكب بسبب الغلافات الخارجية التي تدور حول الكواكب والنجوم وقد تناقل هذا المقال جريدة الاخبار وجريدة دمشق المساء وغيرهما من الصحف المحلية والعالمية وقد أثبت هذا البحاثة العربي بأن القمر محاط بغلاف ثلجي متجمد كثيف . وهذا



الغلاف أصابه انفجارات داخلية في القمر أحدثت به ثقوبا وفجوات واسعة نراها سوداء . وقد ظنها العلماء قارات وجبالا . وقال أيضا بوجود أقمار ونجوم سقطت عنها الغلافات وأصبحت منطفئة مثل الكرة التي نعيش عليها ويمكن ان يكون فيها بشر . وقد اثبت علماء السوفييت نظرية الاستاذ الياس بولس الخوري بعد ان أطلقوا قمرهم نحو الفضاء ليصل الى كوكب الزهرة . وقد أرسلت هذه المحطة تسجيلات تفيد بأن الزهرة محاط بغلافات الاول من الغاز الكربوني والثاني مؤلف من شحنات كهربائية وبعد مسير شهر احترق هذا القمر الصناعي من شدة الحرارة . وقد اثبتوا أيضا مرة ثانية نظرية الاستاذ الياس بخصوص الغلاف الثلجي المتجمد الذي يحيط القمر . ونشرت هذا الخبر جريدة التلغراف والطيار وجريدة الحوادث البيروتية بتاريخ ٩ كانون أول سنة ١٩٦١ نقلا عن وكالة الانباء العالمية . روتر - تاس - اسيوشتبرس كما يلي : صرح بعض علماء السوفييت بأنه لا يمكن الوصول الى القمر بسبب وجود هالة ثلجية متجمدة حول القمر يبلغ قطرها ٤٠ ك م ولوجود هالة ثانية غازية بعد الهالة الثلجية يبلغ قطرها ١٠ ك م . وقد أثبت أيضا العالم البولندي (كودلفسكي) الذي يعمل في مرصد خراكوف في روسيا نظرية الاستاذ الياس بوجود قمرين طبيعيين غير قمرنا يدوران حول الارض في محور يبعد عن قمرنا ٦٠ درجة . لذلك ننشر بكل فخر واعتزاز مقال الاستاذ الياس بولس الخوري حول وجود قمرين منطفئين يسكنهما بشر مثلنا ليطلع القراء على هذا المقال العالمي العظيم الذي سيحدث

ضجة عالمية ويغير اتجاه علماء الشرق والغرب نحو اكتشاف هذين العالمين ، وقريبا سيصدر الاستاذ الياس كتابا قيما يبحث في هذا العلم العظيم .

قال البحاثة العربي الياس بولس الخوري بأن علماء الكلدان ادعوا منذ خمسة آلاف سنة بأن للكرة الارضية ثلاثة أقمار منيرة فاين ذهب القمران ولم نعد نرى غير قمر واحد من أقمارنا ؟ هذا سؤال خطير شغل بالنا مدة خمس عشرة سنة وأخيرا بعد دراسات طويلة توصلنا الى نظرية جديدة وهي أن الكرة الارضية لما كانت كتلة نارية منذ ملايين من السنين كان حجمها ضعف حجمها اليوم وقد حدث فيها انفجار بأمر الله قذفت على أثره كتلتين في أوقات مختلفة كل واحدة منهما بحجم القمر الذي نراه ثم بعد الوف من السنين قذفت أيضا بأمر الله كتلة ثالثة وهي القمر الذي نراه . وهذه القذيفة الثالثة كانت أقل قوة من القذيفتين السابقتين فقطعت ٢٤٠ الف ميل واستقرت وهي القمر . وبما ان القمرين الاولين كان قذفهما قبل القمر الثالث بألوف من السنين لذلك سقط عنهما الاطار الثلجي المتجمد أولا فزال عنهما الضياء اللامع وانطفأ وأصبحا كرتين مثل كرتنا الارضية التي نعيش عليها تماما . وبما ان القذف الاول كان قويا جدا لذلك صارت المسافة أبعد من المسافة التي بيننا وبين القمر وهذه القوة القاذفة جعلت القمرين يدوران على نفسيهما مثل الكرة الارضية تماما وبما ان الاطار الثلجي قد سقط عنهما فقد تشكلت فيهما بحار وأمواه ولكن أقل اتساعا من بحار الكرة الارضية فنسبة اليابسة ٧٥٪ والبحار ٢٥٪ وهذه النسبة كافية لري كل من هذين القمرين ومن الممكن أن يعيش فيهما بشر . ومما يثبت نظريتنا هذه ورود اشارات لاسلكية من خارج الكرة الارضية مرات عديدة . وقد التقطها مرصد السويد فلم يتمكن العلماء هناك من فهم اللغة التي أرسلت فيها ولا ان يفككوا رموزها وبما ان مرصد السويد هو في قمة الكرة الارضية فقد كان من السهل ان يلتقط المخابرات الخارجية ، وقد أرسل هذا المرصد مخابرات بجميع اللغات ولا نعلم عما اذا كانت وصلتهم أم لا لان المسافة التي تفصلنا عن هاتين الكرتين قدرناها من الثلاثمائة الى الاربعمائة الف ميل ويجوز ان يكونوا قد وصلوا الى درجة من الرقي والاختراع اكثر مما وصلناه .

كيف نقدر أن نجدهما ؟

ان الخطوة الاولى هي ان نتمكن من الوصول الى القمر بشرط أن يقود المركبة رجال مدربون أقوياء ونجعل القمر محطة انطلاق نحو هاتين الكرتين واني واثق من وجودهما على بعد ٦٠ درجة بعد القمر أو مائة الف ميل أبعد منه ، وان هاتين الكرتين تدوران حول الارض مثلما يدور القمر وعلى ظني بأن السنة هناك أطول من السنة القمرية وان سكانهما يشاهدون القمر كما نشاهده نحن بحجم أكبر مما نراه لانه قريب منهما أما درجة الحرارة هناك فأقل مما هي عليه عندنا ويجوز أن أجسام البشر هناك أكثر احتمالا من أجسامنا للبرد . أما أشكال الناس هناك فلا نقدر أن نعلمها ويجوز أن يكونوا مثلنا أو أطول لان المناخ البارد يجعل الانسان طويلا . ويجوز ان يعترض العلماء على نظريتنا هذه بقولهم اذا كان يوجد مثل هاتين الكرتين فلماذا لا يجعلان على الارض الكسوف بدورانهما حول الارض فأقول : ان القذف القوي الاول قد جعل مستوى هاتين الكرتين أعلى من مستوى الكرة الارضية لذلك لا يحدث الكسوف . أو لان بعدهما عن الكرة الارضية لا يسمح بوصول الظل اليهما في دورانهما حولها .

اثباتات هذه النظرية الجديدة :

انا نثبت نظريتنا هذه بدعائم أربع :

أولا – الاشارات والمخابرات الخارجية التي تصل الى الكرة الارضية الى المراصد منذ سنين عديدة .

ثانيا – ان الدائرة التي تسير عليها الكرة الارضية ودارة القمر ودائرة الكرتين المذكورتين انتخبها الله من المجرة كلها وجعلها صالحة لسكن الانسان لانها واقعة في أواسط المجرة الشمسية معتدلة المناخ بالقرب والبعد عن الشمس فكوكب الزهرة وعطارد هما أقرب منا الى

الشمس بمسافات كبيرة فلذلك لا يمكن أن يعيش فيهما بشر البتة لان الحرارة فيهما تصهر الحديد والفولاذ ٠

ونجمة المريخ والمشتري ونبتون واورانوس وزحل وغيرها تبعد كثيرا عن الشمس لذلك تكون فيها البرودة لا تحتمل فبعض الكواكب تصل البرودة فيها الى المائة تحت الصفر وبعضها أكثر من ذلك بكثير حسب بعد الكوكب عن الشمس لذلك نرجح بأن نظريتنا ثابتة ٠

ثالثا ـ لا يمكن وجود بشر في الكواكب والنجوم لان الاطارات والاغشية تمنع وصول أشعة الشمس وكل نجم مشع وظاهر للبشر لا يمكن ان يكون فيه حياة ٠

رابعا ـ ان القمر له تأثير على الكرة الارضية فلا يجوز ان يكون للكرة الارضية قمر واحد حتى لا يختل توازن الكرة فوجود ثلاثة أقمار من الجهات الثلاث يحفظ جاذبية الارض وينظم سيرها بصورة دائمة ٠ فلكل شيء له ثالوث مثلا النور والهواء والماء هي من مقومات الحياة ٠ والشمس لها ثالوث أيضا المصدر والنور والحرارة ٠ والانسان مكون من ثلاثة عناصر الروح والجسد والدم ٠ ويوجد مثلثات كثيرة لا مجال لذكرها ٠

لا يمكن أن تكون المخابرات آتية من الكواكب والنجوم :

يظن بعض العلماء ان المخابرات آتية من المريخ لانه أقرب الكواكب الينا فهذا الادعاء ليس له مسند من علم الفلك فالبشر لا يمكن ان يعيشوا في المريخ لانه يبعد عن الشمس ١٣٩ مليون ميل ويبعد عن الارض ٤٥ مليون ميل تقريبا فكيف يعيش الانسان في جو بارد يقدر بمائة تحت الصفر والمريخ حجمه أكبر من الارض بسبع مرات ويظن ان له قمرين ٠

ولا يمكن ان تكون المخابرات آتية من القمر لانعدام الماء فيه وبدون ماء لا يقدر الانسان على العيش وحجم القمر أصغر من حجم الارض بـ ٤٩ مرة وعلى ذلك نقول ان هذه النظريات لا بد ان تتحقق بوقت قريب وتصبح حقيقة ثابتة لا مراء فيها ٠

الحياة في تشيكوسلوفاكيا

لقد كللت العلاقات السياسية الطيبة التي تدل على ارادة عامة في التعايش السلمي في تشرين الثاني ١٩٥٩ بعمل لا بد من أن نشير اليه وهو توقيع معاهدة صداقة وتعاون مع الحبشة ٠ كما نشير الى عدة منجزات في الحقل الثقافي يشهد عليها عدة اتفاقات ثقافية وعلمية مع بلدان آسيا وافريقيا ٠ منها انشاء المعهد التشيكوسلوفاكي للدراسات المصرية في جامعة شارل وافتتاح مركز استعلامات تشيكوسلوفاكي في القاهرة عام ١٩٥٩ ٠

وبمقدار ما فشل الحصار الاقتصادي بعد أن متنت تشيكوسلوفاكيا علاقاتها الاقتصادية مع البلدان الاشتراكية وبمقدار ما أخذت تنحسر الحرب الباردة تحت تأثير القوى العاملة لازالة التوتر العالمي بمقدار ما تمكنت من تجديد العلاقات مع البلدان الرأسمالية ٠ ان براغ تضع شرطا وحيدا لهذه العلاقات وهو : المساواة الحقوقية وعدم التدخل في الشؤون الداخلية ٠ وفي هذا المجال استطاع الاقتصاد التشيكوسلوفاكي أن ينمي علاقات تجارية قفزت من ٢٠٠٠ الى ٤٢١٧ مليون كورون بين سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٩ وفي مقدمة هذه الدول ألمانيا الفدرالية ثم بريطانيا العظمى ، فالنمسا ، فسويسرا ، فهولاندا ، وفنلندا ، وبلدان أخرى ٠

كما أن التجارة والعلاقات الثقافية تنمو حاليا بين فرانسا وتشيكوسلوفاكيا ٠ ان بعض المعارض الحديثة مثل معرض الفن الغوطي في باريس ومعرض النسيج الفرنسي أو حياة الزوجين توري في براغ تشهد على قوة تقاليد التبادل الثقافي ٠ ان تشيكوسلوفاكيا تقيم أهمية كبرى لهذه العلاقات من أجل مصلحة البلدين تجاه يقظة الامبريالية الالمانية التي قاسى منها الاهوال شعباهما ٠ ان العلاقات هي هامة جدا أيضا مع النمسا ٠ ولقد

عبرت تشيكوسلوفاكيا عن موقف ايجابي تجاه هذه البلاد بأن وضعت نفسها بين الدول الموقعة على معاهدة الدولة النمساوية التي أبرمتها سنة ١٩٥٥ الدول الاعضاء في الحلف الضد الهتلرية . ولقد استطعنا أن نحقق معها كثيرا من التقدم في حل بعض المسائل المتبادلة التي لم تحل حتى الآن . وخاصة ما يمس الميدان الاقتصادي . ونعطي مثلا على ذلك : الاتفاقية على التعاون لبناء سد كبير فيه مركز كهربائي على الدانوب تتوزع قوته في البلدين المتجاورين .

اننا لم نقدر على أن نحسن العلاقات الاقتصادية مع الولايات المتحدة . لان الاوساط المهيمنة فيها تعمل على تشديد الحصار الاقتصادي على تشيكوسلوفاكياوتمنع تسوية العلاقات المعلقة بين البلدين .

ان مساهمة تشيكوسلوفاكيا في مجالات العلاقات العالمية تأخذ في كل سنة جديدة أهمية أكثر .

ان هذا الواقع ينعكس على العلاقات الدبلوماسية والقنصلية التي - أقيمت حتى بداية ١٩٦٠ - مع ٦٤ دولة مع ان التبادل التجاري يجري مع ٧١ دولة . ان تشيكوسلوفاكيا تسهم الى جانب ذلك في مؤسسات عالمية ١٩ منها ذات طابع حكومي و ١٣١ ذات طابع غيرحكومي وهي تشارك في المؤتمرات والمحاضرات فقد شاركت خلال سنة ١٩٥٩ بـ ٣٢ مؤتمرا ذات طابع حكومي و ٥٤٢ أخرى .

ونشير هنا الى مساهمتها في اللجنة الاقتصادية الاوربية لوكالة الغوث كما ساهمت في (الاتفاق العام للتعرفات والتجارة) الذي لم يشترك فيه سواها من البلدان الاشتراكية .

ولقد حصل الجناح التشيكوسلوفاكي على أعظم نجاح في معرض بروكسيل سنة (١٩٥٨) . كما ساهمت في ٣٢ معرضا أجنبيا في سنة ١٩٥٩ ولا بأس من أن نذكر مساهمتها الناجحة في معرض عالمي في (برنو) مكرس للانشاءات الآلية . فأظهرت بهذه المناسبة انتصار الانتاج التشيكوسلوفاكي العظيم وساهمت بذلك في دعم نمو التبادل الاقتصادي العالمي .

أما بشأن العلاقات الثقافية فأنها تتضاعف بصورة مستمرة . أو لا يمكن تبادل القيم الحضارية ومكتسبات العلم من تعارف وتفاهم أفضل بين الامم ومن أقامة التعايش السلمي ؟ لقد نمى هذا التبادل الى ثلاثة أضعافه بين سنتي ١٩٥٥ و ١٩٥٩ وقد باتت لها علاقات ثقافية سنة ١٩٦٠ مع ٢٠ دولة نصفها لا ينتمي الى البلدان الاشتراكية .

ان تشيكوسلوفاكيا تقوم بدور فعال في أعمال الاونيسكو . ولقد استلمت زمام المبادرة خاصة في تحقيق مشروع الغرب والشرق الذي يساهم في زيادة المعرفة المتبادلة للقيم الثقافية بين البلدان الشرقية والغربية .

ولقد أسهمت في المؤسسات العالمية القائمة على التعاون العلمي . ولقد كان اشتراك الفلكيين التشيكوسلوفاكيين ، على المستوى العالمي ، عظيما في السنة الجيوفيزيائية العالمية .

ولقد حظى العلم في هذه البلاد في سنة ١٩٥٩ بشرف عظيم بشخص العالم (هيروفسكي) الذي منح جائزة نوبل لاعماله في العلوم القطبية .

كما أن التبادل الموسيقي يحافظ على مكانة هي في الصف الاول في العالم . ولقد قامت الفرقة الفلرمونية الشيكية - وهي من أولى الفرق في العالم - في عام ١٩٥٩ بجولة من أكبر الجولات التي قامت بها اذ زارت الهند وأستراليا واليابان . كما أن فرقنا الصغيرة والموسيقيين المنفردين يلاقون نجاحا عظيما في مختلف البلدان . كما أن مهرجان الموسيقى الذي يدعى « ربيع براغ » ينظر اليه منذ أمد طويل على أنه من الاحداث العالمية الكبرى يؤمه موسيقيون من كل أصقاع العالم .

ولقد استرعت انتباه العالم السينماالتشيكوسلوفاكية بأفلامها . فقد أحرزت أحد انتصاراتها العظيمة في معرض بروكسيل العالمي اذ حصلت على الجائزة الكبرى التي منحت لفيلم « المغامرات الغريبة » وهو فيلم أثار الانتباه ببنائه الفني وكمال صنعته وفكرة السلام النبيلة التي يدعو اليها . أما مهرجان كارلوفي فاري فقد كان دائما موعدا سينمائيا يتقاطر اليه الناس من كل فج .

العيون التي أحب ...

بقلم : عبد الكريم الصباغ

منذ أعوام ...

كانت الآمال طفلة ... ندية ، مثل الهمسات البكر ، والحب الكبير

لم أكن يومها كالعاشق ... ولم أحلم بالثديين ، ولا بالوصل ، أو الشهد ...

كنت أحب الحب من أجلك أنت ... من أجل عينيك ...

يا لقلبي المسكين ... كم ركض يبحث عنك ، حتى وجدك ...

●

ومر عام من عمر حبنا القصير ..

كان بودي لو طال عمر حبي ... لاظل هكذا معلقا بين جفن وهدب ... واتيه بين رفة ولمحة .

فأنا في ظلال حبك أطوي كل الاحزان ..

وأعانق كل المسرات ...

أرأيت ، كيف ان الصخر يتفجر عنه الماء الزلال ..؟ كيف ان العيون تأسر وتقتل ...؟!

ويقولون في عينيك مرض ، وفاتهم ان القمر يستمد ضياءه من نور عينيك ...

وهم لم يحسبوا ان ظلام قلبي قد تبدد كله منذ ان عرفتك ...

وماتت أفكاري القلقة بنور عينيك الجميلتين ...

ولست أدري ...

أي سحر ذاك الذي حملته الى هذا المكان النائي من بلادي .. أأستكثر جمال عينيك وانا في هذه القرية الصامتة الا من ضجيج أطفال المدرسة حولي ..؟؟

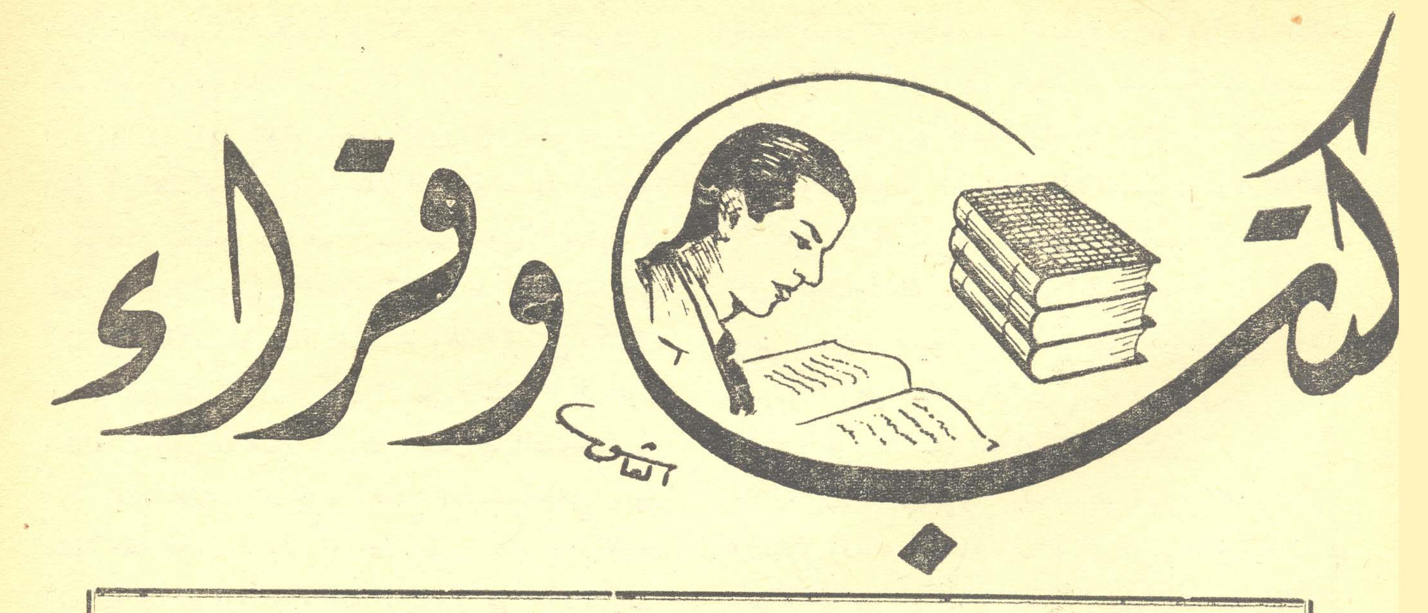
لقد عشت عمري أحب العيون ... وليس كل العيون ...

كنت أكره أن يطيل غيري النظر اليك ... واتطلع اليه خلسة مخافة العيون حولك ، تلك التي ما أحببتها يوما ...

●

كانت أمسية باردة ... وشاء القلب لو يحدثك ... ولكنك آثرت الابتعاد ... واختفيت عن ناظري بسرعة وانتهى حبنا القصير وما بكيت أبدا ... من أجل العيون التي أحب ...

الكويت — عبد الكريم الصباغ



حول كتاب الأمة العربية في معركة تحقيق الذات

بقلم : محمد المبارك

صدر هذا الكتاب في آواخر عام ١٩٥٩ ، وهو في مجموع صفحاته التي تزيد على المائتين يدور كله تقريبا حول فكرة واحدة ، خلاصتها أن حضارة العالم الحديث، بما تعانيه من الازمات المستحكمة . سواء في المجال الدولي أو الاقتصادي أو الاخلاقي ، هي حضارة فاسدة ناقصة ، وأن الدلائل تدل على أن هذه الحضارة قد انتهى دورها وأفل نجمها ، وأن العالم ــ كما يقول الاستاذ المؤلف في الصحيفة ١٠٧ ــ « منتظر ومترقب لحضارة من نوع جديد ، لنموذج انساني ، ولمبدأ انسانية سعيدة ، ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الامم متعاونة ، شاملة لنواحي الحياة . وهذه الرسالة محتاجة الى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع بعبئها والتبشير بها . أما هذه الامة فقد أختيرت منذ الازل .. انها الامة العربية التي حدد الله مسؤوليتها في قوله : وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ، وفي قوله : لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .. » .

ويحدد المؤلف هذه الرسالة بأنها هي الاسلام « كما فهمه العرب الاولون فشادوا به حضارة وأقاموا عدلا ونشروا علما حافظوا به على شخصيتهم في القديم والحديث » ثم يضع الاستاذ برنامجا لتحقيق هذه الرسالة من ثماني نقاط تتلخص في تحرير البلاد العربية جميعها من الاستعمار وفي تحرير فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية ، وفي تحريرها أيضا من عملاء الاستعمار وأعوانه وأوليائه ، وفي تدارك التخلف الاقتصادي والاجتماعي في البلاد العربية ، وفي « احداث ثورة في المفاهيم للتخلص من الجمود الناشيء عن الفهم الاعجمي للاسلام في العصور التي تخلى فيها العرب عن مهمة القيادة الفكرية والسياسية » .. وفي تعاون أبناء الامة العربية من مسلمين ومسيحيين والمؤاخاة بين الديانتين باعتبارهما موجتين روحيتين متلاحقتين ظهرتا من الشرق العربي . ثم في التعامل مع الدول الاجنبية على أساس معاداة العدو ومصادقة الصديق دون الاندماج أوالتبعية ،

ومعاونة الشعوب الاسلامية على تحررها من الاجنبي ومن حكم العملاء من أبنائها •

ولكي يقوم العرب بهذا الدور التاريخي ، ومن أجل أن يتمكنوا من أداء هذه الرسالة عليهم أن يعوا ذاتهم وأن يفهموا دورهم ورسالتهم ، ولهذا ينبغي أن يتحرروا من رواسب عصور الانحطاط وأن يتحرروا أيضا من المذاهب الاجنبية الفاسدة • وهذا يقتضي «كشف الستار عن مداخل الحركات الشعوبية التي تأخذ ألوانا مختلفة ، وعن مفاهيمها المنقولة وشعاراتها المستوردة ••»

هذه خلاصة موجزة للفكرة الاساسية التي يدور عليها هذا الكتاب ، وقد أورد المؤلف الكثير من الآيات القرآنية لاثبات آرائه ، ولكنه لم يقتصر على هذه الآيات، وانما أورد طائفة أخرى من الادلة المختلفة ، منها ما يتصل بالتاريخ ومنها ما يتصل بالجغرافيا ، ومنها ما هو من قبيل الاستنتاجات والاستدلالات المنطقية والفلسفية•• فالاستاذ المبارك يرى أن العرب أمة « متوسطة » في كل شيء ، فأرضهم تقع في الوسط عند ملتقى القارات ، بين الشرق والغرب ، وحضارتهم أيضا تقع في موقع وسط بين مادية الغرب وروحانية الشرق ••

ويلاحظ الاستاذ المبارك أن طبيعة العرب طبيعة خيرة كريمة ، وأن فطرتهم الطيبة «تجعلهم أحسن الناس استعدادا للجمع بين الوسائل المادية والاهداف الخلقية الكريمة » •• ويستشهد بأبيات من الشعر الجاهلي ليدلل بها على ما كان يتحلى به العرب من مكارم الاخلاق وسمو الطباع ، مما كان يؤهلهم تحمل رسالة الاسلام ، وأنه كان من عظيم حكمة الله أن اختار العرب دون سائر الشعوب الاخرى لحمل رسالته لانه « كان بين العرب ومبادىء الاسلام تجاوب خاص واتصال صميمي •• »

ومن الادلة الاخرى التي يقدمها الاستاذ المبارك على صحة رأيه ملاحظة تتعلق بالتطور ، فالاستاذ يرى أن الامم في تطور مستمر وانها الآن في طور انتقال من التكوين العضوي « البيولوجي » •• الى التكوين العقائدي « الايديولوجي » • ويضرب مثلا على هذا بظهور دولتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الاميركية ، فكل منهما مجموعة بشرية من قوميات مختلفة تجمع بينها فلسفة واحدة مشتركة ••

ويستخلص الاستاذ المبارك من هذه الملاحظة الشكلية أن العالم اليوم يسير نحو الحضارة العربية ، لان الحضارة العربية ليست الا الحضارة الاسلامية وهي حضارة عالمية أممية لانها تقوم على أساس العقيدة الدينية ، وهو أساس عقائدي أو « ايديولوجي » !

ويقرر الاستاذ المبارك أن الاسلام والعروبة شيئان متلازمان تلازم الروح للجسد ، فالعرب هم رسل الاسلام ودعاته وحملة رسالته الى الامم ، والاسلام هو رسالة العرب الى العالم وهو الحل العربي الانساني لسائر مشاكله والعلاج لكل أدواته وأمراضه المزمنة • كما يلاحظ الاستاذ بحق أن حضارة الاسلام بدأت بالتراجع والتقهقر منذ أن خرجت قيادة العالم الاسلامي من أيدي العرب الى أيدي الاعاجم ، وأن عودة هذه القيادة الى أيديهم هي بداية نهضة العالم الاسلامي •

ويرى الاستاذ المبارك أن العرب على أبواب نهضة تشبه نهضتهم الاولى في صدر الاسلام ، أما الصعوبات التي تعترض طريقهم فهي تتمثل فيما تحمله الامة العربية من رواسب عصور الانحطاط السابقة ، ثم في هذه التيارات والمذاهب الاجنبية التي وفدت على البلاد العربية من الخارج أو ما يسميه بالغزو العقائدي الاجنبي• ولهذا فانه يدعو الى التحرر من تلك الرواسب القديمة ومحاربة المفاهيم والمذاهب الاجنبية الجديدة الفاسدة وشعاراتها المستوردة • وأنه من أجل هذا قد قام بوضع هذا الكتاب ••

ان آراء الاستاذ المبارك هذه تحمل المزيد من الخير والبشرى للامة العربية وللعالم الاسلامي وللعالم الانساني بأسره ، وتوحي للقارىء بالتفاؤل الشديد بمستقبل زاهر سعيد ، وتشبع أحلام البشر المعذبين الذين يتوقون الى العيش الكريم في مجتمع عادل تسوده المثل العليا الانسانية وترفرف عليه السعادة الكبرى

المنشورة • وانني كعربي مسلم يؤمن بهذه المثل العليا للسعادة البشرية أتمنى من أعماق قلبي أن تتحقق هذه الافكار الخيرة وأن تصدق هذه النبوات الجميلة والبشائر السارة ، ولكني أخشى أن تكون هذه الافكار قائمة على قواعد من الوهم أو الخطأ في التأويل والتحليل .. أخشى أن تكون مبنية على نظرة صوفية مثالية لا على نظرة علمية واقعية •

ولست أريد بهذا القول أن انقض آراء الاستاذ الكبير أو أن أدحض هذه النظرة الانسانية المتكاملة التي تبدو وكأنها أروع حل لمشاكل الانسانية • كما أنني لا أريد أن أضع نظرية مقابلة أو أن أشير الى نظرية أخرى مضاهية لهذه النظرية ، فأنا أشارك الاستاذ رأيه في أن حلول مشاكلنا يجب أن تنبع من عقولنا نحن ومن قلوبنا ومن أرضنا ومن تراثنا ، ولكني أريد فقط أن أبدي بعض الملاحظات حول بعض الافكار التي وردت في ثنايا هذا الكتاب مما أراه يتعارض مع الفكرة الاساسية نفسها التي يدور حولها هذا البحث الهام •

وأول هذه الملاحظات ينصب على ما قرره الاستاذ المبارك من أن العرب هم الامة المختارة أو المرتقبة التي اختارها الله منذ الازل للقيام بدور البطولة في هذا العالم• انني استغرب هذا الرأي الذي يبدو أن الاستاذ قد استنتجه من تأويل بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وأرى أن الاسلام جاء ليساوي بين الناس أفرادا وشعوبا .. « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. ولا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى • فما هو قول الاستاذ الكريم في صراحة هذه النصوص ؟

انني أعتقد أن هذا الرأي بعيد عن حقيقة الاسلام بمقدار ما هو بعيد عن طبيعة العرب ، وهو يذكرنا بما يعتقده اليهود من أنهم شعب الله المختار ، وبدعوى النازية عن تفوق العنصر الآري الجرماني ، هذه العقائد والدعاوي التي جلبت الى الامم التي خاضت فيها ضروب الويلات والمآسي والمشاكل والتعقيدات النفسية • ان الامة العربية في هذا العصر ما زالت تعاني من التخلف الشديد ، وليس يفيد في انهاضها أن ترفع لها مثل هذه الشعارات التي تملأ النفوس بالغرور والتعالي وتبعث على التواكل والنوم على أمجاد الماضي أو الركون الى تحقق النبوءات الخيالية • ان اعلاء مثل هذه الشعارات وغرسها في النفوس لا يجلب للعرب الا مثل ما جلبه لليهود وللنازيين من كراهية العالم ومقته ومقاومته ، وما جلبه للعرب أنفسهم في الماضي من حقد الشعوبية وكيدها ومكرها مما هو معروف في التاريخ العربي •

وعندما نتحدث نحن العرب عن خصائص أمتنا وعن فطرتها السليمة السمحة وشمائلها الكريمة وعن بطولاتها ومكارم أخلاقها يجدر بنا الا نغفل عن التنويه بما يشوب هذه الخصائص والصفات من المساوىء والعيوب التي لولا وجودها لما كبت الامة العربية بعد نهوضها الشامخ الذي لا مثيل له في التاريخ ، ولما تخلفت هذا التخلف الذي دام عدة قرون من الزمان ، وهذا ضروري لكي نستطيع التغلب على أنفسنا ومعالجة أمراضها •

ولست أدعي انني قد استقصيت هذه العلل والنقائص وانني وضعت لها العلاج الناجع ، ولكنني أشير فقط الى ناحية بارزة من نواحي النقص ربما أشار اليها الكثيرون من قبل • وهي النزعة الفردية الشديدة عند العرب ، هذه النزعة الجاهلية التي تقوم على الاعتزاز بالنسب والولاء للقبيلة وعبادة الذات • ان هذه النزعة الضيقة التي حاربها الاسلام حتى توارت لم تلبث أن عادت الى الظهور على مسرح الحياة العربية بعد عهد النبي بقليل ، وما زالت هذه النزعة الضيقة تحدث آثارها الضارة المدمرة في حياة هذه الامة وفي تعويق سيرها وتحطيم وحدتها وتأخير تقدمها • وكم كنت أتمنى عندما تحدث الاستاذ المبارك عن خصائص هذه الامة المجيدة أن يتعرض أيضا لمثل هذه النزعات بما تستحقه من الدرس والتحليل ، وأن يبحث عن العلاج الشافي لمثل هذه الادواء التي نقاسي منها •

وهناك ملاحظة أخرى أرجو أن يسمح الاستاذ

بأن أبديها له حول فكرته عن « توسط » الامةالعربية ..
أما بشأن التوسط الجغرافي فهذا أمر مفهوم تماما ، ان نظرة سريعة الى خريطة العالم تؤيد صحة مذهب الاستاذ في أن بلادنا تقع عند ملتقى القارات الثلاث القديمة ، ولا يشك أحد في أن للموقع الجغرافي وطبيعة الارض أثرهما في تكوين الشعوب وتحديد بعض خصائصها وملامحها العامة ، ولكني لا أكاد أفهم معنى « التوسط في الموقع الحضاري » كما يسميه الاستاذ ، وعلى فرض صحة وجود هذا « التوسط » في الموقع الحضاري ، فانني لا أرى أن التوسط في الموقع يدل على صحة الموقف أو أفضليته لمجرد أنه متوسط بين طرفين آخرين ..

وفي رأيي المتواضع أن الدعوة الاسلامية لم تنجح في الماضي بسبب توسطها بين حضارات العالم ، وانما نجحت لانها كانت متطرفة ! فعندما ظهر الاسلام لم تكن هناك رأسمالية ولا اشتراكية ، وانما كان يسود العالم نظام العبودية وحضارات الرومان واليونان والفرس وغيرهم من الامم السابقة ، وقد كان الاسلام ثورة على العبودية في ذلك العصر . كان ثورة متطرفة على الاقوياء في سبيل الضعفاء ، وعلى الاغنياء في سبيل الفقراء ، وعلى الاسياد في سبيل العبيد المعذبين .. ولهذا وجدت دعوة الاسلام تجاوبا لدى كافة الطبقات المضطهدة المظلومة المحرومة ، ليس لدى العرب وحدهم ، وانما لدى سائر الشعوب التي بلغتها رسالته .

وان كان العرب قد شعروا نحو الاسلام بصلة خاصة أو « تجاوب خاص » على حد تعبير الاستاذ ، فلعل ذلك يعود الى انهم وجدوا فيه سبيلهم الى قيادة العالم وسيادته ، وهذا ما حدث بالفعل .. فلم يمض الا أربعون عاما حتى تحولت الخلافة الاسلامية الى امبراطورية عربية ، وتحول النظام الجمهوري الاسلامي الى نظام ملكي وراثي لا يقوم على مبادىء الاسلام الا بمقدار ما تقتضيه ظروف الحكم أو ترتضيه طبيعة الحاكم .

وأخيرا لا بد لي من أن أبدي اعتراضي على الموقف العدائي الذي يقفه الأستاذ من الحضارة الحديثة بشكل عام ونعته لها بالفساد وتبشيره بزوالها وانتهاء « دورتها » على حد تعبيره .. ولست أريد أن أبرىء الحضارة الحديثة من كل وجوه النقص والخلل ، فهناك أزمات ومشاكل وأوضاع ما زالت تثير الحروب الطاحنة وتقض مضاجع البشر وتقضي على الطمأنينة والامن في العالم ، وهنالك عوائق ما زالت تعوق تقدم العالم وانطلاقه وتعادي تحرره وتطوره ، ولكن في الوقت نفسه توجد محاولات وتبذل جهود جبارة لحل كل هذه المعضلات ومعالجة هذه الآفات ، ولا بد من أن يستمر الصراع في هذا العالم بين قوى الخير وقوى الشر حتى ينتصر الخير وتخفق رايات السلام والعدل فوق أرجائه .

ولكن هذا لا يعني أبدا أن الحضارة الحديثة على ما فيها من الشرور يمكن أن تزول لتخلي مكانها لحضارة أخرى مختلفة ليس فيها شيء من الاثم ولا يعتورها النقص . ان كل حضارة تقوم في هذه الدنيا هي أبنة لحضارة سابقة وأم لحضارة لاحقة ، بل ان كل الحضارات الانسانية انما هي حضارة واحدة تطورت مع الزمن مرحلة بعد مرحلة حتى بلغت ما بلغته الآن من القوة والنضج وسعة الافق .

ان كل حضارة جديدة يمكن أن تقوم في هذا العالم لا بد أن تتولد من هذه الحضارة القائمة الآن وأن تكون مرحلة من مراحل تطورها وحلقة في هذه السلسلة الطويلة التي يتألف منها في مجموعها تاريخ الانسان على هذه الارض . ولا يمكن لاية حضارة جديدة أو أية حلقة جديدة من حلقات التطور الحضاري أن تغفل ما أحرزته الانسانية في عالمنا الحاضر من التقدم العلمي والرقي المادي والادبي الذي مكن الانسان من السيطرة على قوى الطبيعة ، وأتاح له القدرة على التحليق في الفضاء الخارجي والتغلغل في أرجاء الكون .

لقد بات الآن من غير الممكن أن يغفل تطبيق العلم القائم على التجربة في سائر نواحي الحياة ولم يعد مقبولا لدى أحد أن يخالف منطق العلم أو أن تلغى أو تضار

الاحكام العقلية السليمة المستمدة من الفهم الصحيح والتذوق السليم لمعاني الخير والحق والعدل والحرية والجمال .. اننا ان فعلنا هذا لا نكون قد ابتعدنا قط عن تراثنا القومي والروحي ، بل نكون قد أحيينا هذاالتراث ودفعناه أو اندفعنا بقوته الى المكان اللائق بنا في هذا العالم .

انني لاشارك الاستاذ الكبير ايمانه الشديد واعتقاده الراسخ بسمو الخصائص العربية وسلامة الفطرةالعربية، وانني لشديد الاعجاب والاعتزاز بهذا التراث العربي الباهر الذي انعكست فيه هذه الخصائص الرفيعة . وانني لاشارك الاستاذ الكبير في تفاؤله بنهوض هذه الامة ، وفي الدور القيادي الذي ستلعبه على مسرح العالم ، ولكنني لا أشاركه في هذا التخوف الذي يبديه مما يسميه « بالغزو العقائدي » أو استيراد الشعارات .. فالعرب أنفسهم قد غزوا العالم بعقائدهم وأفكارهم ، وصدروا الى العالم شعاراتهم ومثلهم ولم يجدوا في ذلك حرجا .. وكذلك لم يتحرج العالم في تقبل هذه العقائد والشعارات لان العرب لم يفرضوها على الناس فرضا ولم يكرهوهم اكراها على اعتناقها أو السير على هداها .

ان الامة القوية الاصيلة لا تخشى أبدا من استيراد الافكار والمعارف والمواد الفكرية الاولية (المواد الخام)، بل انها تسعى بكل قواها الى المزيد من استيراد هذه الاشياء التي تفيد منها في تطوير حياتها ، ولكنني مع ذلك لا أخالف الاستاذ أبدا في أن استيراد أو اقتباس مذاهب جاهزة كاملة ، ومحاولة تطبيقها بكل حذافيرها في وسط آخر غير الوسط الذي نشأت فيه ، هو أشبه ما يكون باستيراد الثياب أو « البدلات » الجاهزة ودعوة الناس الى لبسها وهي لا تلائم أجسامهم أو لا تناسب أذواقهم .

وكما أن انعزال الامة وانكماشها وانطواءها على ذاتها مدعاة للجمود والتخلف ، فأن التقليد هو مدعاة الميوعة والانحلال وانعدام الشخصية وعامل من عوامل الذوبان والفناء . ان كل الامم تأخذ من غيرها وتعطي غيرها ، والتقدم الفكري هو ميراث مشترك بين سائر الامم والشعوب ، وليس يضير أمة من الامم أن تنتفع بتجارب الامم الاخرى وأن تفيد من خبرتها وأن « تستورد وتصدر » ما تشاء من هذه التجارب والخبرات.

وانما الشيء المهم في نظري أو الشرط الذي يتوقف عليه نجاح تطور الامة انما هو الحرية . أي أن يكون الناس أحرارا فيما يقبلونه أو يرفضونه . ولا يمكن أن يكون الناس أحرارا اذا كانوا ملزمين باتباع مذهب لا يؤمنون به أو تقديس نصوص لا يؤمنون بحرفيتها ، أو كانوا مرغمين على التظاهر بهذا الايمان وهذا التقديس مخافة التهديد بالتفكير أو الاتهام بالتحريف أو الردة أو الخيانة .

ان اطلاق حرية الفكر والتحرر من الخوف هي الوسيلة التي نكفل بها انطلاق خطانا على الطريق القويم في مضمار التقدم الذي بدأنا نأخذ بأسبابه ونتطلع الى آفاقه البعيدة .

وفي ختام هذه الملاحظات لا يسعني الا أن أشيد بهذا الجهد المشكور الذي بذله الاستاذ الكبير محمد المبارك في تعريف هذا الجيل العربي بخصائص أمتهم الكريمة وعظمة تراثها ، وفي دعوة العرب الى تحرير سائر أقطار بلادهم وتوحيدها في كيان واحد ، وفي دعوته لاحياء الروابط الاخوية الغنية التي تربط العرب بالعالم الاسلامي الكبير ، وفي دعوته الحارة الواعية الى نصرة الجزائر المجاهدة والالتفات الى القارة الافريقية التي تربطنا بها أقوى الاواصر والاسباب .

كما لا يسعني الا الاشادة والاعتزاز بما يتجلى في هذا الكتاب من ايمان الاستاذ المبارك بعروبته ، ذلك الايمان الذي لا يعادله الا ايمانه بالله ، وايمانه الراسخ بأن العرب قد أصبحوا على أبواب النهضة منذ أن « بدأوا يرفعون من الرجال من يحقق لهم العزة والسيادة ، ولو كانوا من غمار الشعب ، ويخفضون من أرادوا لامتهم الذل .. ولو كانوا ملوكا » .

محمود المطلق

الجاحظ

تأليف : الدكتور شارل بلات

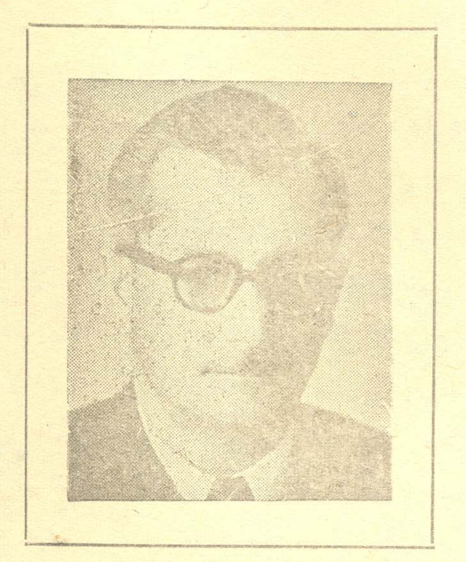
تعريب : الدكتور ابراهيم الكيلاني

الدكتور ابراهيم الكيلاني أديب ممتع وباحث نافذ النظر ومترجم حصيف يجيد الاختيار ويستجيب لحاجة الادب العربي فيسد ما يتخلله من نقص وما يتطلبه من توسيع وغنى .

والكتاب الذي ترجمه الدكتور يكاد يكون فريدا في بابه نادرا في نفاسته اذ أنه سيرة حياة شخص من خلال عصر ، وبعث لعصر من خلال ترجمة انسان على نحو يتطلب الدقة والشمول معا ، خاصة وأن التأريخ لاديب خالد كالجاحظ يقتضي مزيدا من العمق والتقصي لان أمثال هؤلاء الخالدين يطوون في شخصياتهم القوية تاريخ أمة وأدب شعب ولا يغادرونها الا وقد بدلوا في حياتها تبديلا يتناول العادات والمثل الادبية والقيم الاخلاقية حتى ليستحيل علينا أن نفصل بين العبقري وعصره .

وقد أجاد المؤلف في الجمع بين خطي هذا المنهج المزدوج حتى جاء الكتاب تأريخا ثقافيا لحياة البصرة في القرنين الاول والثاني للهجرة ، ودراسة لسكان البصرة وعناصرهم العربية والفارسية والزنجية ، وتفصيلا عن الوسط الديني بما يحوي من علوم القرآن والحديث والتصوف . ثم توسع المؤلف في دراسة الوسط الادبي البصري بما فيه من علوم النحو واللغة والرواية والشعر بأقسامه السياسية والفنية . ثم درس الحركات السياسية الدينية التي نشأت في البصرة أو لاقت رواجا بين أبنائها . وختم كتابه بمطالعة واعية للحياة الاقتصادية والاجتماعية وذيله بملحق يتتبع حياة الجاحظ في بغداد وسامراء بحيث يستوفي البحث غايته ، وان كان هذا الملحق ليس من أصل الكتاب وانما هو بحث مستقل .

* * *



يبدأ الكتاب بتمهيد يبرر فيه منهج الكتاب ويوضحه بحسب البديهة التالية : ان الجاحظ يمثل خلاصة الثقافة البصرية رغم أن غالبية انتاجه جرت في بغداد . واذا أردنا أن نعرف ماهية تكوين الجاحظ العقلي وجب علينا أن نتعمق في تاريخ البصرة السياسي والديني والفكري والاجتماعي منذ تأسيسها . وبذلك يكون الكتاب « سيرة جزئية للبصرة ، مركزة على شخصية فريدة هي بمثابة اشعاع يمثلها كل التمثيل . » ذلك أن الجاحظ كاتب خصب ومجدد حقيقي يجيد استعمال اللغة بمهارة فائقة وهو من أبرز مؤسسي النثر العربي . وفي كتاباته أفكار تستمد مادتها من الدين والعلوم العربية والوسط البصري الفني بالاضافة الى التطلع الذاتي الذي يوفر للجاحظ نظرة ذاتية الى العالم ويقوده الى حافة الارتياب بحيث يظهر الجاحظ كأعظم الكتاب الانسانيين بين العرب رغم أنه يضع نفسه بتواضع في سلك الرواة ونقلة الاحاديث والشعر . ويبدو أن الجاحظ كان

مسوقا في حياته الطويلة ـ مع احتفاظه باستقلاله الفكري ـ الى ارضاء فئات من الاسياد وتأليف رسائل مطابقة لبعض العقائد السائدة يومئذ • وبذلك نقل النثر الى مرحلة الدعاوة ـ وكان الشعر أداة الدعاوة قبله • واستعمال النثر للدعاوة استتلى استخدام العقل على صورة أوسع ، في حين أن الشعر يقتصر على الحماسة ومخاطبة الاذن • وعدته العقلية هي التي جعلت آثاره مشروطة بحوادث ذات طبائع متنوعة • فيجب اذن التفتيش عن الدوافع الفكرية والاجتماعية والدينية والسياسية التي تبدو ماثلة في كل صفحة كتبها • ولا ريب أن تردد الجاحظ على حلقات التدريس المختلفة ابان نشأته في البصرة قد نجاه من عيب معاصريه ذوي الاختصاص الضيق الذين يقتصرون على ثقافة واحدة عربية أو يونانية • كما أن له من أساتيذه موارد واسعة فقد درس الجاحظ اللغة على أبي زيد الانصاري وأبي عبيدة الاصمعي وأخذ الحديث عن أبي يوسف القاضي وتمامة الاشرس وتلقن النحو عن أبي الحسن الامعش وعلم الكلام عن ابراهيم ابن سيار النظام •

وقد استجاب الجاحظ في بغداد لمشاكل البصرة السياسية الدينية وأعمل فكره الثاقب بها فطلع علينا بكتاب « مسائل العثمانية » الذي رد به على الشيعة وأنحى باللائمة على الامويين واحترم التسلسل التاريخي للخلفاء الراشدين • وفي الواقع فاننا اذا كنا نعرف تماما توقيت آثار الجاحظ فانه باستطاعتنا ايجاد علاقة بين الحوادث السياسية التي قامت ضد العباسيين واتخذت أقنعة دينية فكرية وبين المؤلفات ذات الصلة بالسياسة التي كتبها الجاحظ • والدليل على ذلك أن أول كتبه السياسية هو كتاب « الامامة » وقد ألفه بأشارة من المأمون • ويظهر الجاحظ ككاتب شبه رسمي مكلف باذاعة أرادت حكومية أو تبسيط أفكار دينية أو الدفاع عن العباسيين والعرب والاسلام • وعلى هذا تكون انحرافاته عن آرائه عائدة الى تغير نظرة الدولة نحو أمر من الامور •• مع أنه استطاع أن يبقى مخلصا لنظرته الدينية الخاصة بدليل عدم انحيازه الى المتوكل الذي حارب الاعتزال • أما موضوعاته الاجتماعية فقد استمدها من تصوير أخلاق الناس في حياتهم العادية ـ وهذا نوع جديد أدخله الجاحظ في الادب ـ ولم يقتصر على طبقة دون أخرى بل تناول البورجوازية والطبقات الشعبية والارستقراطية بعين مفطورة على الملاحظة احتفظت بنضارة السذاجة التي اكتسبتها من نشأته البسيطة • وقد أفادته هذه الموهبة بأن خلصته من عيب التقليد والاتباع الذين كان يسيطر على آثار الادباء آنذاك • وفي الوسط البورجوازي وجد الجاحظ البيئة التي صورها في كتابه « البخلاء » • وكانت معرفة الجاحظ لهذا الوسط مستمدة من حرص البورجوازي البصري على تقليد الطبقة الخاصة • ومن هذا الوسط المؤلف من مسلمين ومسيحيين ألف الجاحظ رسالته في الرد على النصاري • كما أن موقع البصرة التجاري يفيد من تيارات التبادل بين العراق وبلاد الجنوب والشرق والشرق الاقصى ، مما أذكى الحس التجاري عند السكان وساعد على تنمية مواهب الجاحظ في الملاحظة • وفي هذا الوسط يكثر الاختلاط وتتمتع النساء بنصيب من الحرية • خاصة وأن الاماء توصلن بتبرجهن الى ايقاد نار الهوى في قلوب الشبان •

ونلمس هذا الميل لدى الجاحظ في رسالته عن القيان خاصة وأنه لم يتزوج بل فضل التسري ودافع عنه ، بالاضافة الى أن الوسط العقلي في البصرة كان خير معين على تكوين القيان اللواتي كان أثرهن فاصلا في النواحي الاخلاقية والاجتماعية وفني الموسيقى والغناء • مما عمم الفساد على المجتمع وجعل المستوى الاخلاقي في تدهور ، وجاءت نظرية الاختيار وكثر اتباعها وحاول الفرد أن يستمتع بحريته المستردة ، فجاءت النتيجة خصبة في ميدان العقل ومشؤومة الى حد ما في ميدان الاخلاق والدين • ومما لا ريب فيه أن الجاحظ كان ينتسب الى فئة معتدلة بدليل أن سمعته الاخلاقية الطيبة التي احتفظ بها مكنته من أن ينصب نفسه كمصلح

أخلاقي دون أن يتعرض لهزء الناس وحقد ضحايا سخريته .

هذا هو الجاحظ ابن البصرة التي أسهمت في تكوين مذهب السنة واعتمدت على القياس كميزان عقلي لامورها وغلبت مذهب الاختيار فحررت الارادة ونصرت العقل وساعدت على نشوء مدرسة الاعتزال ووسعت القياس العقلي الى مجالات النمو واللغة . وقد جاء الجاحظ ممثلا لكل تلك الخصائص العقلية التي هي بصرية في صميمها . والتي تمثل بالذات خصائص البورجوازية البصرية التي استقبلت الجاحظ ـ وهو ابن الشعب ـ كأحد أبنائها حين سطع نجمه ونبه ذكره .

انني لم أعرض الكتاب الذي يقترب من أن يكون دائرة معارف أحياها خيال خصب وفكر ثاقب ، بقدر ما حاولت أن أخرج من الكتاب بمقال عن الجاحظ يعطي فكرة للقارىء عن طريقة الدكتور شارل بلات في الاستنتاج والبحث ، منوه ابصفاء العبارة التي أدى بها المترجم الدكتور كيلاني معاني الكتاب واخلاصه للنص الاصلي ، شاكرا له الفائدة العميمة التي أداها للادب العربي ونقاده .

دمشق ـ محيي الدين صبحي

التراب الحزين للدكتور بديع حقي

بقلم : معلّى الصارم

عندما يخلد الاديب الى نفسه يستجلي صور كتابه، فيقف تحت ظلال روائعه ينعم بأفيائها ، ويعب من جمالها ما شاء له ذوقه ، وما اتسع له أفقه الادبي . وعندمايخرج هذا الاديب الى ميدان تتلاقى فيه العواطف والافكار . لا بد له ـ وقد تركت نضارة الادب في نفسه رواء وبهجة ـ من أن يقدم بين يديه ـ فيما يكتب ـ وغيا كبيرا وخيالا وثابا وتعبيرا صحيحا ، فيبعثها رسلا من شخصيته تدل عليه أديبا عرف الصور حيها وميتها ، عرف مواقع الكلم وملاءماتها ، عرف كيف يذيب روحه في أسلوبه ، حيث يعطيه كل معاني الحق والخير والجمال، ومن هنا تعرف : كتابة المرء عنوان عقله .

لكن أدباء اليوم الذين انطلقوا يحبرون ويسطرون، قد أفسدوا الادب على ناهله ، عندما راحوا يلوثون مناهله بأدران نفوسهم .. ولا أريد أن أشغل كلمتي هذه بهم ، فحسبي أني على جانب كبير من الايمان ـ أنا ومن معي ـ أن الادب قد نفضهم من علائقه ، وتركهم للدمن التي استهووها عهبطوا على خضراواتها :

لقد قرأت (التراب الحزين) للدكتور بديع حقي، وهو مجموعة قصص قصيرة . ولكني عندما قرأته كنت أشعر أني قد انتقلت الى عالم معنوي يعمر بكل ما تستلذه النفس وتطيب له .

أما الكتاب فقد كان يذهب بي مذهبين اثنين : لقصة . وهي التي رعاها المؤلف رعاية كريمة ، أخرجها من روحه الطيب ورؤاها من ايمانه العميق وعقيدته الثابتة ، وألبسها من خياله الوثاب ما يحلها من نفس الاديب وذوقه أعلى مكان وأعزه .. والادب . وهو ما عرف به المؤلف من القدرة على التعبير وجمال السبك وسلامة الالفاظ .. وهو الذي يجمع بين المذهبين بهذا الاسلوب الذي يدل على شخصية الدكتور الادبية . فكان في كلا الامرين المتعة التي استهوتني وأوقفتني تحت ظل ابداعه ، أخرج منه لاعود اليه ، وأتلوه لاعمر في نفسي ناحية ظللها الخمول فاستعادة نشاطها الحيوي ..

فللدكتور حقي تقديري وشكري على ما كتب فأجاد وأفاد .

مسبحة الاحزان

شعر : فتحي جرار

من أنين الناي في هدأة السحر
ومن نواح الحمائم على غصون الشجر
من انطفاء الامل في العيون الحائرة
ومن وقع خطا الموت على جسر الحياه
من ذلك كله
نظمت مسبحة أحزاني
عندما تموت التمتمات على شفاه الليل الجامده
ويميل الكرى بالاعناق المجهده
أمد يدي في خزانة أسراري
وأتناول مسبحتي
وأعد حباتها واحدة ... واحده
وعندما يفجأني الفجر بابتسامته الوقحه
وتنطلق العصافير من أعشاشها
تكيل له اللعنات
أرفع مسبحتي بكلتا يدي
وأودعها خزانة أسراري
ثم أمضي أجر الخطا الى حلبة المصارعه
هناك على شاطىء البحر في الليل البهيم
انقطع خيط مسبحتي
وانتثرت حباتها فوق الرمال
فجاءت موجة رعناء
وحملتها بعيدا ... الى أعماق اليم
وخلفتني وحيدا
أيتها الامواج العابثة
ردي الي مسبحتي .. اني عائد الى محراب أحزاني

منتهى المنى

شعر : أمين موسى

حيران ..
لا نجمة .. في الافق تؤنسني
غفا الهلال
وماست نسمة الشجن
وكل شيء على تهويمة الورق
قد ضاع
في لجة التسهيد والحزن
ومقلتي ..
أبدا .. ترعاك من كلف
تظل .. صهباؤه الحمراء تثملني
ما ذاقت النوم
والاشواق ترصدها ..
تعبى
وهازئة بالليل والوسن
أجفانها والظلام الذئب في حرب
كم .. مزقته .. وألقته على الدمن
سبيلنا .. يا حياتي .. كلما ابتعدت
أرواحنا .. طلعة من طيفنا الحسن
ألقاك فيها وتلقينني ..
ولا أحد
الا هوانا .. وبوح الروح للبدن
وثغرنا في صحارى الوجد واحتها ..
وقبلتانا نداء الطير للفنن
حيران .. يا أنت ..
يا ألوان أغنيتي
سرقت قلبي بلا نقد ولا ثمن
أيامنا .. قد تقضت .. حسنا شغف
رباه .. طال النوى والنأي روعني
سأفرش الدرب زهرا .. والمدى ذهبا
يوم اللقاء
اذا ما الحب اسعدني

مع مهرجان الشعر في يومه الثاني والثالث

بقلم : شوقي جلول

بقية العدد الماضي

يا شعراءنا .. جمهوركم ذواقة فلا تفسدوا ذوقه وتصرفوه عن وردكم الى مناهل أخرى ، لقد أقبل بكليته اليكم حاملا أمانيه في أن يسمع شيئا جميلا ، شيئا رائعا ، جاء فاتحا قلبه لنيسان قصائدكم التي يؤمل ان تكون ازميل البناء في بيت احلامه الخضر .. لا تصرفوا المشتاق دون عناق زودوه قبل انصرافه ولو بالتفاتة ليذكرها في سكرات كراه وصحوات نوره ويقول لابنائه من الاجيال الصاعدة :

كان في أيامنا شعر وشعراء يحج الى منابرهم تبركا وتشوقا ..

احفظوا لقب شاعر وحافظوا عليه من الابتذال بكل ما تستطيعون ، نحن نعيش في دوامة ألقاب وبحر شهرة ليس له أول من آخر ..

الجميع أدباء والجميع كتاب والجميع علماء والجميع أساتذة ، لقد امتهن لقب استاذ حتى صار ينادي لبائع (الترمس) يا استاذ فلا تكرر المأساة في لقب الشاعر .. وهو الانسان الذي يحمل الانسانية والشعور وينهض بهما في رسالة النبي الى أبناء قومه وأمته ..

اذن انتم صورة اللقب الكبير وقصائدكم اطاره فلا تدعوا العدم يأكل الاطار ويعانق الصورة ..

مع شعراء اليوم الثاني :

شعراء اليوم ثلاثة ثان وثالث وثالث .. أما الاول فلا زلنا نبحث - ويدنا على قلوبنا - عنه بحرارة وايمان واصرار - وأخشى أن أقول - عنيد حتى لا نسطو على شعر الفائز الثاني لمسابقة الشعراء الشبان في لازمته المكرورة كأيام الاسبوع الاصرار العنيد وما تستلزمه بقية (الموال) عنده ..

الشاعر الاول لم يأت بعد ونحن نبحث عنه ونتساءل لماذا نمنى دائما بالخيبة والاخفاق ..

أبو سلمى عبد الكريم الكرمي - شاعر الارض السليبة - انسان حمل قضية بلاده قلادة في عنقه و (خرصا) في أذنه ولم يتركها .. وحق له ذلك فمن الحب المؤمن بالبلد تنبع بقية الاخلاق شاعرنا في قصيدته الافق الحبيب يتساءل هل تضيء جراحه بعد هذا السير المغذ وهل يرف جناحه على السفح .. ولكن لماذا على السفح وليس على القمة وهو العربي المجاهد .. ويؤكد لنا ثانيا بعد عزيزة هارون ان الصباح ما هو الا نسيج قطرات الدم المشعة .. اذن صباح الخير يا شاعرتنا ويا شاعرنا .. حشد الاشواق .. أو الاشواق المحشودة لم أهضمها .. في بيته الرابع ..

حطين يا استاذنا لم تزل نصب أعيننا وان غطاها غيم الدمع وسحاب الالم .. الضباب لا يمنع الشمس ان تسطع .. حقنا وحقيقتنا هما الشمس والباقي ضباب أبيض وأسود ووشكان ما تحز رقبته سكين النور وسيفها المذهب ...

اعجبني حثه المنشدين في المهرجان على العمل لا القول لان فلسطين لا ترجعها الف كلمة ستعودين وترجعين .. وقد سبقه الى هذا المعنى الرائع شاعر العروبة رشيد سليم الخوري « الشاعر القروي » في مهرجان الجزائر عندما صرخ مدويا بصوته العربي :

والنصر يؤتاه المجاهد بالخناجر لا الحناجر .

سيف لنثر الهام يسوى الف شاعرة وشاعر ..

نشكر لابي سلمى تذكيره وتركيزه على هذا المعنى المشع العميق .. ولا يفوتنا ان نثني على هذا البيت الرائع :

أي شعر يروي حكاية شعبي

كل شعر يعيي عن الافصاح

ولكن بيتا واحدا جميلا في قصيدة لا يكفي كما ان خصلة حميدة في أخلاق الفتى لا تجلو محاسنه أمام العارفين .

ولم أرتح الى تساؤله المر من مرارة الالم الذي يحضنه شريدا منذ ثلاثة عشرة عاما ..

هل فلسطين لا تزال بلادي

أم محاها من البسيطة ماحي ..

المشردون ، المتعبون ، المؤمنون ، المحبون ، الذين حملوا أوطانهم في قلوبهم لهم صبح ابلج تصنعه ، دماؤهم المسفوحة على أقدام الحق ..

لو محاه من البسيطة ماح فانه يسكن قلوب النازحين ..

وركب المنبر بعد ذاك الشاعر - شاعر الشباب - أحمد رامي .. الالقاء يا شاعري أس وطيد من أس الشعر .. القصيدة المدرسية التي نحفظها صغارا تغاير القصيدة التي يسمعنا اياها شاعر ربط شاعريته بالشباب..

حيا دمشقنا كما حياها قبله الكثير من أبناء العم كشوقي وحافظ وصالح جودت ثم جاء هو .. وقد زف اليها التحية كل على طريقته وقافيته وان تنوعت الاسباب..

لو اعطى أحمد رامي كل لفظة حقها وأمهرها مهرها من العناية لاحتلت قصيدته من القلب فراغا تحسدها عليه بقية غانيات المهرجان من بنات الشعر ..

وعلى كل حال ما يعجز كله لا يترك جله .. كانت قصيدة أحمد رامي وأبو سلمى ، المقلتين بالنسبة للمهرجان في هذا اليوم .. ولا يفوتنا ان نثني على اهتمام أحمد رامي شاعر الشباب بالشاعر زعيم الشباب فخري البارودي ولو من وراء لسان المنبر ومن بعيد لبعيد .. وبالمناسبة لماذا لم نسمع شيئا لفخري البارودي صاحب التاريخ المتكلم ديوانه الذي حكى به حكاية شعبنا قافية ووزنا .. وعزمي الدباغ لو أعطى « محروسته » (وجدان) قصيدته لعدلت الكفة على الاقل .. ونحصل على القاء جيد مقابل عطاء وسط فيصبح لدينا المثل أقرع وذقنه طويلة . يكون (شي غطى شي) ..

وشريفة فتحي على ما يبدو كانت تحاول ان تقنعنا انها تعرف أصول العروض فجاء القاؤها تقطيعا لاوزان أبيات القصيدة كما علمونا مبادىء العروض في الدراسة البعيدة فكرة القصيدة جيدة والقافية مرنانة والبحر راقص لكثرة ما فيه من أجراس المجد وأعراس البطولات .. وقصيدتها الثانية حلوة كصبية ناعمة صغيرة عملية الالقاء في هذه القصيدة كانت تنسجم مع حنان المعنى ودفء الحرف وحرارة الدفقة الشعورية ..

ربما حسب صلاح الدين كديمي نفسه في محكمة يرافع عن قضية من القضايا فانساب معها ونسي جمهوره ولكن يا أستاذ المحاماة غير الشعر وجمهور تلك غير جمهور هذا ..

زمان المعلقات ولى مع طرفة والحارث وعنترة واليوم زمن الشعر القصير - بفتح وكسر الشين - اذا كنت لا تصدق تتبع (الموضات) في بلادنا ..

لو ركزت وكثفت معانيك المبعثرة في صحراء قصيدتك لخلقت لنا بيتا ريفيا صغيرا وبركة ماء وشجرة كثيرة الفروع وكرما سخيا اليس هذا حلم أبناء القرية عندما تهتف فيروز بلسانهم .

لعل أعمق عاصفة من التصفيق قوبل بها شاعر هي التي أعقبت نزول عبد الله شمس الدين عن المنبر .

لهذا الشاعر القاء جيد ، ولو اجتمع البيان الجيد والشعر الجيد ، اذن لجنينا من الكرم شيئا آخر غير الحطب ان نجاح أغنية الفها - وقرزم بها شاعر ليس دليلا على تأصل الشاعرية عند خالقها .

انشودة الله أكبر لا تعني ان الذي الفها سيد قافية وملك حرف ومولى تعبير ترف .

وحمل عامر البحيري موكبنا وطاف به المتاهات على جناح قافية مزدوجة ساكنة أقعدها بعدما أمرها ان تكون كسيحة .. في عصر نحن بحاجة فيه الى الطيران لا الركض فحسب .

لولا بعض أبيات ـ ليست جديدة ـ لحسبت اننا في محاضرة .

لقد اجتمع علينا رتابة الالقاء وازدواج حرف القافية والملل من المكرور المعاد كأنه درس تهج الطفل في السادسة .. وكان مسك الختام لسهرة الشعر ابراهيم نجا . نجانا الله واياه من لسان النقد وعذاب النار تمنيته ان يكون اسما على مسمى ولكن اسمه لم يفده اذ كما قال :

« ليس في الامكان ان يفعل الا ما يريد » .

ونحن مع الاسف ليس بالامكان ان نسكت على أثواب مرقعة تقدم لنا على انها نسيج حريري ناعم جيد .

ماذا جرى لشعرائنا اليوم كلهم يهرب من القافية الموحدة الى الرباعيات وهم لو دروا شروط الرباعيات لعادوا القهقرى .

عيب الرباعيات انها اذا كانت موضوعا واحدا ملتزما لم تشف الغليل غليل المستمعين اذ لا تكاد الاذن تحضن قافية المقطع الاول وتستريح اليه وتنام عليه وتنتظر الجديد حتى يوقظها حصان قافية شرود جديد وهكذا.. ابراهيم نجا شاعر مجدد يغرف من الكلام ما حلاله وطاب .

ولكن مهلا فانك اذا استمعت الى ال(طالما) عند هند هارون واللاوعي عند (حسين ابراهيم) لآمنت ان (ليس في الامكان) عند ابراهيم هي نبعة الشعر وسرحة خياله الممدود .

اليوم الثالث

لعل اليوم هو أحفل الايام بالناس فالمقاعد كانت أقل من الحضور .. وربما عزي هذا الامر الى وجود عدد لا بأس به من الشعراء الذين كانوا وما زالوا موضع التجربة والامتحان لدى ذواقة الجمهور المتتبعين .. وبالاحرى لوجود شبان وشيوخ ، كنة وحماة ، وبمعنى أصح قديم وحديث .. ولتوقع حدوث الصراع الابدي الذي لم ينته بعد حتى يشاء الخالق .

اليوم هو واسطة المهرجان بعقد الشعر الوضيء تميز هذا اليوم بثلاثة شعراء استطاعوا أن يسموا بنا ويخلقوا لدينا اعجابا واستزادة منهم ويستردوا منا عطايانا من المحبة والثقة والتفاؤل بهذا المهرجان .

أول هذا الغيث الشاعر ، الشاب القلب الشيخ الجسد محمد الفراتي الذي لا أعتقد انسانا قرأ له ولم يعجب به .

عندما امتطى صهوة المنبر غبت في موجة من التداعي .. تداعت الى خاطري كلماته التي حفرها القلب في محراب صمته ونام عليها وحفظها مع غواليه الكرام .

تذكرت قولة عن هذا الشاب النفس عندما سأله مندوب احدى المجلات كم عمرك . قال : تسعون ، ثم أردف :

ولكني لا أحب الموت ولن أموت ، وعندما استدار المندوب منصرفا جذبه الشاعر من كتفه وقال له : اكتب يا عزيزي واذا مت لا تصدق . انني مت بل قل سرقه الموت غصبا .

بعد عمر طويل يا أستاذنا وأمد الله لنا في أيامك واشعارك وابقى لنا هذا اللسان الغريد الفرد . الغزل أحلى لفظة تتلقفها أذنا الانسانية في جميع مصائرها ، ولكنها تكون أحلى عندما تخرج من ابن تسعين ما زال يتدثر برداء الشباب قلبه وروحه ابقى لهما رداءشبابهما.

عند ذاك تشتاق الغزل مرتين مرة لانه غزل والغزل حديث المحبة والقلب وليس أحلى من القلب محدث ، وأخرى لانه صادر عن محمد الفراتي .

الحسناوان اللتان سحرتا عقولنا هذه ليست من بنات شاعرنا الكبير ولكن له الفضل الاكبر في انتقائهما دون بقية الحسان ، والريح الطيبة لا تفوح الا شذى وعبيرا .. وهكذا الفراتي ، شاعر في قلبه ، شاعر في عطائه ، شاعر في حرفه وانسانيته وأخيرا شاعر حتى في انتقائه والذوق والتذوق امتداد ايجابي للموهبة الفطرية والثقافة المكتسبة .

القصيدتان اللتان ـ القاهما ـ لشاعرين فارسيين هما كنجمة الصبح بالنسبة لجمهورهما شرقا وغربا . الاولى

لحافظ الشيرازي الصوفي الغزل والثانية لسعدي الشيرازي الانساني النزعة والغزل وكما قيل ولا يعرف الفضل الا ذووه ، ولا الشعر الا بنوه ولا الحسن الا متذوقوه •

هذا بعض الاحساس والشعور تجاه ما أعطانا في هذا المهرجان محمد الفراتي • والقليل كما يقولون دائما يعير به ولكن الكرام قليل على ذمة شاعرنا •

ومحمد الحريري ، شاعر مبدع • مجدد في اطار القديم حمل تراث الحرف وجدد فروعه وابقى على أصوله فاستطاع ان يعطي المستمعين شيئا يستزاد منه ويتاق الى تكراره لا ننسى ان نشكر المجلس للمرة الثانية انتقاءه هذه المرة فقط •

القاء محمد الحريري موصول النسب بعمر ابو ريشة وان كان الاصل غير الفرع لقد كان محمد الحريري ممثلا ومخرجا وشاعرا في آن واحد ، لقد كان على مسرح ، ثم تركه ليمتطيه شاعر آخر فارس مثله •

الشهباء كانت منذ القديم أم الضاد وحصنها الشامخ، ومن دروبها انطلقت سرايا الفخر سرايا الفتح سرايا المجد والشعراء منها انطلق أبو ريشة الى قمته واقتعدها ، ومنها انطلق سليمان العيسى ، ومنها انطلق منذ القديم عبد الله يوركي حلاق ، وأعطانا من الشعر الاحسن والأجمل والاحلى •

عبد الله ما زال عند النخبة من عبيد الشعر سيد قافية لا ينازع تعرف الضاد فضله وعطفه ورعايته وبره بها فلا عجب ان تحنو عليه في هذا المهرجان وتفتح له أحضانها وقلبها ليقدمه هدية للمستمعين •

شيء واحد أخذته على شاعرنا الكبير هو تقادم الفكرة والصورة في قصيدتيه الموكب ومحمد •

وان يكن قد جلا الفكرة من صدأ التكرار وكساها من حلله وجوهره ما يجعلها الجريدة الكاعب التي تستقطب العيون والاهتمام •

ففكرة التمجد بمحمد ليست جديدة على الشعر ، منذ زمان قديم نادى اليها مارون عبود واسمى ابنه محمدا ليقطع رقبة الطائفية بسيف ايمانه ، ومن قديم دعا اليها الشاعر القروي وابو الفضل الوليد وغيرهم كما ان فكرة ابراز خصائص الرسول الكريم وشمائله واخلاقه وبطولته وزعامته حملها شوقي على عاتقه واجبا كبيرا وأعطاها ما تستحق في قصيدتيه (ولد الهدى) و (ريم على القاع) •

مع ذلك يظل عبد الله يوركي المجلي صاحب القدح المعلى في زحام الفحول وعراك الاصلاء •

لم أشفق على شيء في حياتي كما اشفقت هذا اليوم على الشمس والمجد والنجوم والكواكب والسماء والغار والفخر و •

الجميع يريدون الشمس هذا يريدها له دارا وهذا يريدها رداء والآخر يريدان ينزلها من معقلها لتمشي معه أو ليمشي معها وهذا مرغ جبين النجم بالحذاء يريد تقليد ابي ريشة عندما أدمى حافر مهره جبين الكوكب •

مساكين هذه المخلوقات سخرها الله لنا من بعيد ولكننا لا نقتنع الا بما يقع تحت أيدينا •

البقية جاؤوا أو نسجوا على هذا المنوال فغزلوا لنا رداء طالما لبسناه •

صلاح عبد الصور كنا ننتظر منه غير ما قدم لم نكن ننتظر منه ان يقول : عانقي عدمي •

الحديث له والمستمعون نحن والتفسير على الله الذي لا تخفى عليه خافية •

عبد المعطي حجازي عانقت عيوننا حروف اسمه على ورقة البرنامج ولم تعانق آذاننا صرخات حرفه •

روحية القليني جاء دورها بعد محمد الحريري وفي الواقع أضاع عليها هذا الترتيب كثيرا من الاهتمام اذ كانت النفوس ما زالت تتغنى وتترنم بقوافي الشاعر محمد الحريري •

الجميل فيها انها عرفت ذلك فاعترفت به فشكرا للصادقين وانتظرنا من اسماعيل الصيفي ان يحمل لنا شيئا من اسمه ، قليلا من نسيمات المساء الصيفية البليلة ، ولكن قصيدته كانت حكاية محشورة في قافية ، المعنى جميل جدا والفكرة قومية وطنية ولكن حشرها في اطار

قصصي في قافية ساكنة الحرفين جعلنا نقوقع على أنفسنا .
ختام قصيدتـه كـان بيت القصيد وهنيئا للذين يعرفون ان الشاعر همه ان يكون كل بيت له بيت قصيد .

أما حسين ابراهيم فلا أدري أألوم نفسي لانني حضرت لسماع هذه أطفال أم ألوم . العريف ـ عريف الحفل الذي قدمه ، أم أصب كأس لومي على المجلس الذي أتاح الفرص حتى امام حسين ابراهيم .

هذا الشويعر ـ بحاجـة الى مدرسـة لا الى منبر يعتليه والمنبر امتحان البلغاء .

هند هارون أخيرا لم أنسها ولكني لم أذكرها لان ال طالما في شعرها تغنيك عن التعرض لها فقديما غيروا صاحب « أيضا » مـدة ثلاثين سنة وهي لـو قيست الى طالما لجاءت كأنها الالهام !؟

آخـر العنقود كان عبـد الرحيم الحصني وكمـا يقولون الخير في الآخر .

لا تنقصه جرأة اللسان ولا الجنان لم يرهبه المنبر ولم يخفه الحضور القاؤه سيء بحاجة الى اعتناء بالقائه ، اذ الشعر المسموع غير المقروء في قصيدته لمحات حلوة تبرق كالبرق الخلب بين الغمام ، لم يأت بجـديد من المعان ولـم يجدد لنا تجربة . في نوعية شخصية لديه الايجاب ظاهر يريد ان يعطي ما زال يبحث عن ذاتـه وسيجدها اذا قبل النصيحة عنـدها سنجد نحن شاعرا كنا نبحث عنه منذ زمان النصيحة كانت تساوي جملا .

لنقل الآن انها ليلة جميلة وسهرة ممتعة هذا هو الترمس الذي تتسلى به عن الحلوى .

كان الله في عـون عبـاده ، المتذوقين المسـتمعين الصابرين اذا صبروا على البلوى .

الذكرى ال ١٤ لاعلان الجمهورية الشعبية الرومانية

في يوم ٣٠ كانون أول صادف مرور ١٤ عـاما على اعـلان الجمهورية الشعبية الرومانية . وقـد أقامت خـلالها رومـانيا عـلاقات دبلوماسية مـع أكثـر بلدان العـالم وكذلـك قـامت بعـلاقات تجـارية واشتركت في أكثـر المعارض الصناعية بـين نمساوية وفرنسية وايطالية وغـيرها . ويسرنـا في هـذه المناسـبة أن نرفـع للشعب الروماني الصديق تهانينا القلبية بهـذه المناسـبة الكريمة راجـين لـه دوام التقـدم الاقتصادي والعلمي .

العدد الماضي في الميزان

بقلم : محمد ثابت ابو داله

الشعر اليوم في محنة ـ محنة قاسية عاتية ، لم تأته من أعدائه ، وانما أتته من أنصاره وأدعيائه فقلما تتصفح مجلة أو جريدة ، الا وتقع عيناك على قصيدة مذيلة باسم ناظمها ، أو متوجة باهداء رقيق الى الملهمة ذات العيون الزرق أو الخضر أو ..

فاذا ما غامرت وقرأت تلك القصيدة ، وجدتها مهلهلة في تركيبها ، عتيقة في معانيها ، ناشزة في موسيقاها، فلا تقرأ منها سوى مطلعها ، اللهم الا اذا كنت من أولي العزم من القراء ، وما أن تنته من القراءة حتى تنقلب فجأة وبدون مقدمة من محب للشعر الى كاره ، ومن محبذ الى مستهجن .

واذا بحثنا عن السبب .. السبب الذي يجعل الشعر يتدنى الى هذا الدرك من الانحطاط والاسفاف ، وجدنا أن السبب الاول هو تخلي الشعراء الفطاحل الكبار عن الميدان ، وافساحهم المجال لكل دعي ولكل متشاعر والسبب الثاني هو أن المجلات الادبية لا تمحص ولا تدرس ما يأتيها من انتاج ، خاصة اذا كان مذيلا ـ كما قلت ـ باسم بات معروفا في الوسط الادبي ، وان كان لا يمت للادب بصلة .

ومنذ فترة كنت أقرأ مقالة في احدى الصحف لاحد الادباء الكبار ، تعرض فيه لهذه المشكلة بالذات وبعد أن أعطى المقال حقه من البحث والدراسة ، ألقى على قرائه السؤال التالي : كيف يمكننا أن نحكم على الشخص بأنه شاعر أو متشاعر ؟.. ثم أجاب على هذا السؤال بقوله : « أما أنا فأحكم على الشخص من خلال قصائده وحروفه وقوافيه ، ومدى الابتكار في معانيه ، والتجديد في ألفاظه. أستطيع أن أقول أن الشاعر هو الذي يستطيع أن يأتي بالكلمة المناسبة للمناسبة » .

ولست هنا بصدد مناقشة هذا الرأي ، ولكنني فكرت به كثيرا ، وحدثت نفسي قائلا : ترى الى أي مدى يمكن فيه تطبيق ، هذا القول على الانتاج الشعري الذي أقرأه كل يوم ؟..

وحانت مني التفاتة عجلى فوقعت عيني على مجلة الثقافة وأخذت أقرأ قصائدها :

* * *

لقد أحسنت الثقافة اذ توجت عددها السابع بقصيدة « فلسطين تسأل » للشاعر الاستاذ نديم محمد ، والاستاذ نديم أحد أعلام الشعر في االلم العربي ، معروف بقوة سبكه ، وبمتانة لفته ، وبشاعريته الفياضة ، وأنت عندما تقرأ قصيدته فلسطين تسأل تحس برعشه وبدمعه رعشه الثأر تملأ جوانك :

قسما جاهدا بثورتنا الكبرى بدنيا الجدود والآباء
بأنين الاطفال بالغصص الحرى وبالحمر من دموع النساء
بعذاب الرجال بالغائر الجائش فيهم بعاصفات الشقاء
في غد ترجع السبية والغار المندى في مفرق الحسناء
ويموت الزمان في حلم اسرائيل موت اللهاث في الاجواء
ودمعه الاسى والالم على اخوان لنا تركوا ديارهم :
فشريد على السبيل نزيل وملم على هوان العراء
وهرىء جوعان يأكل زنديه رجاء في بلعه سوداء
وعجيف عريان يلبسه البرد وما غير لذعة من كساء

* * *

والقصيدة الثانية « عبرنا على السبع الشداد نشقها » لشاعر الجزائر مفدى زكريا « ابن تومرت » وهي قصيدة تصور لنا كفاح العرب في الجزائر ، وتحكي لنا بطولاتهم ، وتقص علينا تضحياتهم ، كل هذا يجعلنا ننسى بعض الهنات والاغلاط في هذه القصيدة .

وأحسن ما في القصيدة حنين الشاعر الى أهله ، وشوقه الى وطنه ، وحبه لارض بلده ، هذا الحنين الذي يذكرنا بالشعر المهجري الحديث ، وبشوقي عندما كان في الاندلس :

حنيني الى القصباء هاج مدامعي
وشوقي الى « بلكور » أفقدني الصبرا
وفي حي « باب الواد » ماضي صبابتي
تركت بباب الواد من كبدي شطرا
ويا فتنة « الابيار » والسعد باسم
ألم تنسك الابعاد أيامنا العطرا ؟

وفي القصيدة لفتة حلوة الى فلسطين :

فلسطين في أرض الجزائر بعثها
فمدوا يدا فحم المعاقل والثغرا
فلا عز حتى تستقل جزائر
ولا مجد حتى نصنع الوحدة الكبرى

* * *

وهذا أمل سيتحقق قريبا يا شاعري ، فهو أمنية كل عربي ، وغاية كل وطني ، وهدف كل فرد من الشعب العربي •

ومع أنني من المعجبين بشعر الصافي النجفي ، ومن المقدرين لموهبته الشعرية ، الا أنني لا أستطيع أن أدرك السبب الذي يحمله على نظم أمثال قصيدته « النملة » التي ذكرتني حينما قرأتها بألفيه ابن مالك وغيرها من النظم التعليمي •

ورغم الجدة في موضوعها ، الا أنها ـ أي قصيدة النملة ـ تكاد تنسلخ عن الشعر لولا رباط البحر والقافية فهي خالية من الموسيقا ، مجردة عن الفن الشعري • ومع هذا فأنا ما أزال أعتبر الاستاذ النجفي أحد شعراء العرب ، وواحد من فرسان الشعر الحديث وصدق القائل « لكل حصان كبوه » •

* * *

وقصيدة « موعد » لعبد الرحمن الحصني ، تدل على شاعرية صاحبها ، وعلى خياله الواسع ، فرغم أن القصيدة عادية في كل شيء ، في كلماتها ، في بحرها التقليدي ، في قافيتها المنتقاة لهذه المناسبة ، فانني استطعت أن أجد فيها الركن الاهم من ذلك كله ، وهو الصدق في التعبير ، والجرس الموسيقي •

ها هو المرتع المؤنق يزهو
رصع الطل جانبيه وكلل
ليلك ينفح الاثير وورد
لامس الصبح وجنتيه وقبل
وافترار على شفاه السواقي
من مدام شرابهن وسلسل
ها هنا ذابت القلوب حنانا
غاية الحب أن نراك ونقتل

فالى الامام يا صديقي ، فالغد المشرق ينتظرك ، والهيكل الشعري يرحب بك بعد خطوات قليلة •

* * *

على الرغم من أنني لا أحبذ الشعر المنثور ، ومعه أنني لست من أنصار هذا الفن ، الا أنني لا أستطيع الا أن أعجب بالاستاذ سليمان عواد ، أعجب بثروته اللغوية ، وبتشبيهاته المبتكرة ، وأنا لا أستطيع أن أنعت كلامه بنعت الشعر ، لان للشعر أصولا وقيودا من خرج عليها لا يعد شاعرا ، وليس مرادي هنا أن أهاجم الشعر المنثور وأصحابه ، ذلك لان هذا الضرب من الشعر ما زال في بلادنا في دور التكوين وفي المرحلة الابتدائية ، وان كنت أعد سليمان العواد من رواد هذا الفن ، ومن أوائل « شعرائه » •

وكما قلت فان « قصائد كانت سجينة » قطعة أدبية رائعة فيها الخيال المجنح ، واللفتة الحلوة والصورة البديعة •

لا شك أن قصيدة « ورد تفتح » قصيدة بديعة ، ولا شك أن أسعد علي ، قد قضى أياما وسهر ليالي حتى استطاع أن يطلع علينا بها ، وكان أن زينت بها الثقافة صفحاتها • لقد قرأتها مرات ومرات ، وكنت في كل مرة أقع على معنى جديد ، واكتشف لفتة جديدة ، ومع

اعجابي بالقصيدة الا أن لي مآخذ على قائلها وناظمها ، فهي تدل على سطحية في الافكار مع تكرارها ، وعلى ضعف في الثروة اللغوية عند الاستاذ أسعد علي ، ثم على تكلفه الشديد في بعض الاحيان .

ومع ذلك فأنا أطلب من القراء أن يمعنوا النظر فيها وأن يقرأوها مرات ومرات مثلي فانها قصيدة جديرة بالقراءة وبالترنم فيها لما تحويه من مشاعر صادقة ومن وطنية حقه :

أيام نحن الصاعدون جبالنا
في منكب الامجاد ولا نتشدق
أيام نحن الخائضون بحارنا
ولعقبة ليل الخضارم مشرق
ولخالد عند الشروق زئيره
بالغرب طارق يدق ويطرق

* * *

وقبل أن أتحدث عن قصيدة هكذا لنادر منصور ، أحب أن أقول : أنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا لا أحبذ طريقة الاهداء ، ونادر منصور أراد أن يهدي قصيدته ـ اذ جاز لنا أن نسميها قصيدة الى « س.س » أو س .

وأنا لا أستطيع أن أعترف بالشعر المنثور على أنه شعر ، وأكبر حجة وبرهان ودليل لي على قولي هذه القصيدة ، أنا أرضى أن يكون الحكم هو الاستاذ سليمان عواد بالذات .

استحلفك بالله يا سليمان هل هذا شعر أو نثر أو ماذا ..

أهكذا ؟
وبسهولة ؟
تخفين بشراعك
مركب الدم الصاعد
أهكذا ؟
وبعبث قدمك
المشرئبة على سفح بئر
ترفين خيط الاحتماد
بمندلق زنارك ؟ الخ ...
هذا شعر يا أخ نادر

رفقا بالقراء ، ورحمة بالشعر ، وعزائي للمجمع العربي بدمشق .

* * *

بقلم محمد ثابت أبو دان ـ حلب

